14 me Année No. 678

Lundi—1—7—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٧٨ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢ شعبان سنة ١٣٦٥ — ١ يوليو سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

من صميم الحياة :

اليتـــيمان . . . !

للأستاذ على الطنطاوى

أحسّ (ماجد) أنه لم يفهم شيئاً مما يقرأ ، وأن عينيه تبصران الحروف وتريان الكلِم ولكن عقله لا يدرك معناها . إنه لا يفكر فى الدّرس ، إنما يفكر فى هذه المجرمة وما جرّت عليه من نكد ، وكيف نغّصت حياته وحياة أخته المسكينة وجعلتها جحيما متسعراً . ونظر فى (المفكرة)(١) فاذا بينه وبين الامتحان أسبوع واحد ، ولابدّ له من القراءة والاستعداد ، فكيف يقرأ وكيف يستعد ؟ وأنّى له الهدوء والاستقرار فى هـذا البيت وهذه المرأة تطارده وتؤذيه ولا تدعه يستريح لحظة ، وإذا هى كفت عنه انصرفت إلى أخته تصبّ عليها ويلاتها ؟ ... هل يرضى لنفسه أن يرسب فى أول سنة من سنى الثانوية وقد كان (فى الابتدائى) المجلّى دائماً بين رفاقه ، والأول فى صفه(٢) ؟.

وإنه لفى تفكيره وإذا به يسمع صوت العاصفة ... وإن العاصفة لتمرّ بالحقل مرة فى الشهر فتكسر الأغصان ، وتقصف الفروع ، ثم تجىء الأمطار فتروى الأرض ثم تطلع الشمس ، فتنمى الغصن الذى انكسر وتنبت معه غصناً جديداً ، وعاصفة الدار تهب كل ساعة ، فتكسر قلبه وقلب أخته الطفلة ذات السنوات الست ، ثم لا تجبر هذا الكسر أبداً ... فكأن عاصفة الحقل أرحم وأرق قلباً وأكثر (إنسانية) من هذه المرأة التى يرونها جميلة حلوة تسبى القلوب ... وما هى إلا الحية فى لينها ونقشها ، وفى سمّها ومكرها . لقد سمع سبها وشتمها وصوت يدها ، شَلّتْ يدها ، وهى تقع على وجه الطفلة البريئة ، فلم يستطع القعود ، ولم يكن يقدر أن يقوم لحمايتها خوفاً من أبيه ، هذا الرجل الذى حالف امرأته الجديدة وعاونها على حرب هذه المسكينة وتجريعها غصص الحياة قبل أن تدرى ما الحياة ... فوقف ينظر من الشباك فرأى أخته مستندة إلى الجدار تبكى منكسرة حزينة ، وكانت مصفرة الوجه بالية الثوب ، وإلى جانبها أختها الصغرى ، طافحة الوجه صحة ، بارقة العينين ظفراً وتغلباً ، مزهوّة بثيابها الغالية ... فشعر بقلبه يثب إلى عينيه ويسيل دموعاً ؛ ما ذنب هذه الطفلة حتى تسام هذا العذاب ؟ أما كانت فرحة أبيها وزينة حياته ؟ أما كانت أعزّ إنسان عليه ؟ فمالها الآن صارت ذليلة بغيضة ، لا تسمع فى هـذا البيت إلا السب والانتهار ، أما التدليل فلأختها ، التى تصغرها سنتين ، والطُّرَف لها ، وهى البنت المفردة ، على حين قد صارت هى خادمةً فى بيت أبيها ، بل هى شرّ من الخادم ، فالخادم قد تلقى أناساً لهم قلوب ، وفى

---

(١) وتسمى فى مصر (النتيجة) واصطلاحنا أصح

(٢) ويسمى فى مصر (الفصل) .

قلوبهم دين فيعاملونها كأولادهم، وأبوها هو لم يبق في صدره قلب ليكون في قلبه شرف يدفعه أن يعامل ابنته ، إبنة صلبه ، معاملة الخادم الدلّلة . لقد كتب الله على هذه الطفلة أن تكون يتيمة الأبوين ، إذ ماتت أمها فلم يبق لها أم ، ومات ضمير أبيها فلم يبق لها أب !

وسمع صوت خالته[(١)] تناديها : تعالى وِلِك يا خنزيرة[(٢)] !

وكان هذا هو اسمها عندها : (الخنزيرة) لم تكن تناديها إلا به ، فاذا جاء أبوها المساء فهي البنت : تعالى يا بنت ، روحى يابنت ! أما أختها فهي الحبيبة : فين انت ياحبيبتي ؟ تعالى ياعيني !

وعاد الصوت يزمجر في الدار : ألا تسمعين أختك تبكي ؟ أنظرى الذي تريده فهاتيه لها ! ألا تجاوبين ؟ هل أنت خرساء ؟ قولي : ماذا تريد ؟

فأجابت المسكينة بصوت خائف : إنها تريد الشكولاتة ...

— ولماذا بقيت واقفة مثل الدبّة ! إذهبي فأعطيها ما تريد !

فوقفت المسكينة ، ولم تدر كيف تبيّن لها أن القطعة الباقية هي لها . لقد اشترى أبوها البارحة كفّاً من الشكولاتة ، أعطاه لابنته الصغيرة فأكلته وأختها تنظر إليها ، فتضايقت من نظراتها فرمت إليها بقطعة منه ، كما يرمى الإنسان باللقمة للهرّة التي تحدق فيه وهو يأكل ، وأخذت المسكينة القطعة فرحة ، ولم تجرؤ أن تأكلها على اشتهائها إياها ، فخبأتها ، وجعلت تذهب إليها كل ساعة فتراها وتطمئن عليها ، وغلبتها شهوتها مرة فقضمت منها قضمة بطرف أسنانها ، فرأتها أختها المدللة فبكت طالبة الشكولاتة ...

— وِلِك يا ملعونة فين الشكولاتة ؟

فسكتت ... ولكن الصغرى قالت : هناك يا ماما عندها ، أخذتها الملعونة مني !

واستاقت المرأة ابنتها وابنة زوجها ، كما يساق المتهم إلى التحقيق ، فلما ضُبطت (متلبسة بالجرم المشهود) ورأت خالتها الشكولاتة معها حلّ بها البلاء الأعظم !

— يا سارقة يا ملعونة ، هكذا علمتك أمك ... تسرقين ما ليس لك ؟

(١) امرأة الأب تدعى في الشام خالة .

(٢) ولك كلمة شامية محرفة عن ويلك تردد دائما .

وكان ماجد يحتمل كل شيء ، إلا الاساءة إلى ذكرى أمه ، فلما سمعها تذكرها ، لم يتمالك نفسه أن صاح بها :

— أنا لا أسمح لك أن تتكلمي عن أمي .

فتشمرت له واستعدت ... وكانت تتعمد إذلاله وإيذاءه دائماً ، فكان يحتمل صامتاً لا يبدو عليه أنه يحفلها أو يأبه لها . فكان ذلك يغيظها منه ، وتتمنى أن تجد سبيلا إلى شفاء غيظها منه ، وها هي ذى قد وجدتها ...

— لا تسمح لي ؟ أرجوك يا سعادة البك اسمح لي أنا في عرضك ... آه : ألا يكفي أني أتعب وأنصب لأقدم لك طعامك وأقوم على خدمتك ، وأنت لا تنفع لشيء إلا الكتابة في هذا الدفتر الأسود . لقد ضاع تعبي معك أيها اللئيم ، ولكن ليس بعجيب أنت ابن أمك ...

— قلت لك كُفّي عن ذكر أمي ، وإلا أسكتّك .

واقترب منها ، فصرخت الخبيثة وولولت وأسمعت الجيران ...

تريد أن تضربني ؟ آه يا خاين ، يا منكر الجميل ، ولى ...

يا ناس ، يا عالم ، الحقوني يا اخواتي ...

وجمعت الجيران ، وتسلل ماجد إلى غرفته أي إلى الزاوية التي سمّوها غرفة ، وخصوه بها لتتخلص سيدة الدار من رؤيته دائماً في وجهها !

* * *

ودخل الأب المساء وكان عابساً على عادته باسراً لا يبتسم في وجوه أولاده ، لئلا يجترئوا عليه فتسوء تربيتهم وتفسد أخلاقهم، ولم يكن كذلك من قبل ولكنه استنّ لنفسه هذه السنّة من يوم حضرت إلى الدار هذه الأفعى وصبّت سمّها في جسمه ، ووضعت في ذهنه أن ماجداً وأخته ولدان مدللان فاسدان لا يصلحهما إلا الشدة والقسوة ...

وكانت الخبيثة إذا دنا موعد رواحه إلى الدار ، تخلع ثيابها وتلبس ثياباً جديدة ، كما تخلع عنها ذلك الوجه الشيطاني وتلبس وجهاً فيه سمات الطهر والطفولة ، صنعه لها مكرها وخبثها ، ولا تنسى أن تنظف البنتين وتلبسهما ثياباً متشابهة كيلا يحس الأب بأنها تفضل ابنتها على ابنته ! ...

دخل فاستقبلته استقبال المحبّة الجميلة ، والمشوقة المخلصة ، ولكنها وضعت في وجهها لوناً من الألم البرىء تبدو معه كأنها

المظلومة المسكينة ، ولحقته إلى المخدع تساعده على إبدال حلته وهناك روت له القصة مكذوبة مشوّهة فملأت صدره غضباً وحنقاً على أولاده ، فخرج وهو لا يبصر ما أمامه ، ودعا بالبنت فجاءت خائفة تمشى مشية المسوق إلى الموت ، ووقفت أمامه كأنها الحمل المهزول بين يدىْ النمر . فقعد على كرسى عال ، كأنه قوس المحكمة وَوَقَفَها أمامه ، كالمتهم الذى قامت الأدلة على إجرامه ، وأفهمها قبح السرقة ، وعنفها وزجرها ... وهو ينظر إلى ولده ماجد نزراً ، وكانت نظراته متوعدة منذرة بالشرّ ، ولم يسع ماجداً السكوت وهو يسمع اتهام أخته بالسرقة وهى بريئة منها ، فأقبل على أبيه يريد أن يشرح له الأمر ، فتعجل بذلك الشرّ على نفسه

انفجر البركان وزلزلت الدار زلزالا ، وأرعد فيها صوت الأب المغضب المهتاج :

— تريد أن تضرب خالتك ياقليل الحياء ، يا معدوم التربية ، يا ملعون ؟ حسبت أنك لو بلغت الرابعة عشرة قد صرت رجلا ؟ وهل يضرب الرجل خالته ؟ إننى أكسر يدك يا شقى !

— والله يا بابا مو صحيح ...

— ووقاحة أيضاً ؟ أما بقى عندك أدب أبداً ؟ أتكذب خالتك ؟

— أنا لا أكذبها ، ولكنها تقول لك أشياء ليست صحيحة .

عند ذلك وثب الأب وانحط بقوته وغلظته وما أترعت به نفسه من مكرها زوجته ، انحط على الغلام وأقبل يضربه ضرب مجنون ذاهب الرشد ، ولم يشف غيظَ نفسه ضربُه فأخذ دفتره الأسود الذى أودعه دروسه كلها ، فمزقه تمزيقاً ... ثم تركه هو وأخته بلا عشاء عقوبة لهما وزجراً ...

* * *

تعشى الزوجان وابنتهما ، وأويا إلى مخدعهما ، والغلام جاثم مكانه ينظر إلى قطع الدفتر الذى أفنى فيه لياليه ، وعاف لأجله طعامه ومنامه ، والذى وضع فيه نور عينيه ، وربيع عمره ، وبنى عليه أمله ومستقبله ... ثم قام يجمع قطعه كما تجمع الأم أشلاء ولدها الذى طوّحت به قنبلة ... فلذا هى آلاف لا سبيل إلى جمعها ، ولا تعود دفتراً يقرأ فيه إلا إذا عادت هذه الأشلاء بشراً سوياً يتكلم ويمشى ... فأيقن أنه قد رسب فى الامتحان ، وقد أضاع سنته ، وكبر عليه الأمر ، ولم تعد أعصابه تحتمل هذا الظلم ، وأحسّ كأن الدنيا تدور به وزاغ بصره ، وجعلت أيامه تكرّ راجعة أمام عينيه كما يكرّ فِلْم السينما ...

رأى ذلك الوجه الحبيب ، وجه أمّه ، وابتسامتها التى كانت تنسيه آلام الدنيا ، وصدرها الذى كان يفزع إليه من خطوب الدهر ، رآها فى صحتها وشبابها ، ورأى البيت وما فيه إلا السلم والهدوء والحبّ ، ورأى أباه أباً حقيقياً تفيض روح الأبوة من عينيه الحانيتين ، ويديه الممتلئتين أبداً بالطُّرَف واللُّطَف ، ولسانه الرطب بكل جميل من القول محبَّب من الكلام ...

ويكرّ الفلم ويرى أمه مريضة فلا يهتم بمرضها ، ويحسبه مرضاً عارضاً ... ثم يرى الدار ـ ـضطراب ظاهر فيها ، والحزن بادٍ على وجوه أهلها ، ويسمع البكاء والنحيب ، ويجدهم يبتعدون به ، ويخفون النبأ عنه ، ولكنه يفهم منهم أن أمه قد ماتت . ماتت ؟ إنها كلمة تمرّ عليه مراً هيناً لا يأبه لها ، وكان قد سمع بالموت ، وقرأ عنه فى الكتب ، ولكنه لم يره من قريب ولم يدخل داره ، ولم يذقه فى حبيب ولا نسيب ، غير أن الأيام سرعان ما علمته ما هو الموت حين صحا صبيحة الغد على بكاء أخته الحلوة المحبَّبة إلى أمها ، والتى كانت محببة تلك الأيام إلى أبيها ، ففتح عينيه فلم يجد أمه إلى جانبها لترضعها وتضمها إلى صدرها ، واشتد بكاء البنت ، وطفق الولد ينادى : ماما ... ثم جفا فراشه وقام يبحث عنها ، فوجد أباه وجما من قريباته ، يبكون هم أيضاً ... فسألهم : أين أمه ؟ فلم يجيبوه ... وحين أراد الغدوّ على المدرسة ، فناداها فلم تأت لتعدّ له حقيبته وتلبسه ثيابه ولم تقف لوداعه وراء الباب تقبله وتوصيه ألا يخاصم أحداً وألا يلعب فى الأزقة ، ثم إذا ابتعد عادت تناديه لتكرر تقبيله وتوصيته ، وحين عاد من المدرسة فوجد امرأة غريبة ترضع أخته ... لماذا ترضعها امرأة غريبة ؟ وأين ماما ؟ !

ويكر الفلم ، ويرى أباه رفيقاً به حانياً عليه يحاول أن يكون له ولاخته أماً وأباً ، ولكن هذا الأب تبدل من ذلك اليوم المشؤوم وراى ذلك اليوم المشؤوم ، يوم قال له أبوه : ستأتيك يا ماجد أم جديدة ... أم جديدة ؟ هذا شىء لم يسمع به ، إنه يعرف كيف تجىء أخت جديدة ، إن أمه تلدها من بطنها ، أماهذه الأم فمن أين تولد ؟ وانتظر وجاءت الأم الجديدة ، وكانت حلوة ، ثيابها جميلة ، وخدودها بلون الشفق ، وشفاهها حمر ، ليست كشفاه الناس . وعجب من لون شفاهها ، ولكنه لم يحبها

ولم يمل إليها ، وكانت في أيامها الأولى رقيقة لطيفة ، كالغرسة الصغيرة ، فلما مرت الأيام واستقرت في الأرض ومدّت فيها جذورها ، صارت قاسية يابسة كجذع الدوحة ، وإن كانت تخدع الرائين بورقها الطريّ وزهرها الجميل ... ولما ولدت هذه البنت انقلبت شيطانة على صورة أفعى مختبئة في جلد امرأة جميلة . والعياذ بالله من المرأة الجميلة إذا كانت في حقيقتها شيطانة على صورة أفعى !

وانطمست صور الماضي الحبيب ، واضمحل الفلم ، ولم يبق منه إلا هذه الصورة البشعة المقيتة ، ورآها تكبر وتعظم حتى أحاطت به وملأت حياته ، وحجبت عنه ضياء الذكرى ونور الأمل ... وسمع قهقهة فانتفض وأحسّ كأن رنينها طلقات (متراليوز) قد سقط رصاصُه في فؤاده ، وكانت قهقهة هذه المرأة التي أخذت مكان أمه يتخللها صليل ضحك أبيه ... وأنصت فاذا هو يسمع بكاء خافتاً حزيناً مستمراً ، فتذكر أخته التي نسيها ، وذكره جوعه بأن المسكينة قد باتت بلا عشاء ، ولعلها قد بقيت بلا غداء أيضاً ، فان هذه المجرمة تشغلها النهار كله بخدمتها وخدمة ابنتها ، وتقفل دونها غرفة الطعام ، فلا تعطيها إلا كسرة من الخبز ، وتذهب فتطعم ابنتها خفية ، فاذا جاء الأب العشية ولبست أمامه وجهها البريء ... شكت إليه مرض البنت وضعفها :

— مسكينة هذه البنت ، إنها لاتتغذى ... انظر إلى جسمها ، ألا تريها لطبيب ؟ ... ولكن ماذا يصنع لها الطبيب ، إنها عنيدة سيئة الخلق ... أدعوها للطعام فلا تأكل ، وعنادها سيقضي على صحتها ...

فيناديها أبوها ويقول لها :

— ولك يا بنت ما هذا العناد ؟ كلي وإلا كسرت رأسك !

فتتقدم لتأكل ، فترى المرأة ... تنظر إليها من وراء أبيها نظرة الوعيد ، وترى وجهها قد انقلب حتى صار كوجه الضبع فتخاف وترتد ...

فتقول المرأة لزوجها : ألم أقل لك ، إنها عنيدة تحتاج إلى تربية ؟

فيهز رأسه ، ويكتفي من تربيتها بضربها على وجهها ، وشدّ أذنها ، وطردها من الغرفة ، ويكون ذلك عشاءها كل عشية !

تذكر ماجد أخته فقام إليها فرفعها وضمها إلى صدره .

— مالك ؟ لماذا تبكين ؟ إسكتي يا حبيبتي ؟

— جوعانة !

جوعانة ؟ من أين يأتيها بالطعام ؟ وقام يفتش ... فأسعده الحظ فوجد باب غرفة الطعام مفتوحا ، وعهده به يقفل دائماً ، ووجد على المائدة بقايا العشاء ، فحملها إليها فأكلتها فرحة بها مقبلة عليها ، كأنها لم تكن من قبل الإبنة المدللة المحبوبة ، التي لا يرد لها ، لو طلبت ، طلب ، ولا يخيب لها رجاء . وآلمه أن يراها تفرح إذا أكلت بقايا أختها وأبيها يسرقها لها سرقة من غرفة الطعام ، وعادت صور الماضي فتدفقت على نفسه وطغت عليها ورجعت صورة أمه فتمثلت له ، وسمعها تناديه ... لقد تجسم هذا الخيال الذي كان يراه دائماً ماثلا في نفسه ، حتى ردّه إلى الماضي وأنساه حاضره ... ولم يعد يرى في أخته البنت اليتيمة المظلومة ؛ وإنما يراها الطفلة المحبوبة التي تجد أماً تعطف عليها ، وتحبها ...

ونسي دفتره الممزق ، ومستقبله الضائع ، وحياته المرّة ، وطفق يصغي إلى نداء الماضي في أذنيه ... إلى صوت أمه ...

— قومي ياحبيبتي ، ألا تسمعين صوت أمك ، تعالي نروح عند ماما !

فأجفلت البنت وارتاعت ، لأنها لم تكن تعرف لها أماً إلا هذه المرأة المجرمة ... وخافت منها وأبت أن تذهب إليها . لقد كان من جناية هذه المرأة أنها شوّهت في نفس الطفلة أجمل صورة عرفها الإنسان : صورة الأم !

— تعالي نروح عند ماما الحلوة : أمك ... إنها هناك في محل جميل : في الجنة ... ألا تسمعين صوتها ؟

وحملها بين يديه ، وفتح الباب ، ومضى بها ... يحدوه هذا الصوت الذي رنّ في أذنيه حلواً عذباً ؛ إلى المكان الذي فيه أمه !

* * *

وقرأ الناس في الجرائد ضحى الغد أن المسس وجدوا في المقبرة طفلة هزيلة في السادسة من عمرها ، وولداً في الرابعة عشرة ، وقد حُملا إلى المستشفى ، لأن البنت مشرفة على الموت ، قد نال منها الجوع والبرد والفزع ، ولا يمكن أن تنجو إلا بأعجوبة من أعاجيب القدر ، أما الغلام فهو على أبواب الجنون ، فهو لا يفتأ يذكر الامتحان ، والدفتر الأسود ، وأمه التي تناديه ... والمرأة التي تشبه الأفعى !

(دمشق) علي الطنطاوي

ناثان الحكيم

للدكتور جواد علي

ناثان تاجر يهودي وهبه الله بالا غزيراً لما كثر أبناء جنسه ، ووهبه عقلا كان خير دليل له في الخروج من مآزق الأمور ، وفطنة كانت سلاحا فتاكا يستعمله في التغلب على خصومه .

وكان هذا اليهودي الذي يعيش في أرض فلسطين في عهد السلطان صلاح الدين عيشة ناعمة يحسد عليها . وكان يرابي فيقرض الأمراء والسلاطين . وكان السلطان الأيوبي العظيم قد اقترض منه مبلغاً عظيما من المال ، لقاء فائض فاحش . وأراد السلطان كما تصوره الرواية الامتناع عن الدفع ومصادرة أموال اليهودي بطريقة لا يتمكن فيها هذا المرابي من الدفاع عن نفسه ومن إقامة الدعوى عليه .

فطلب منه ذات يوم أن يجيب عن موضوع طالما اهتم به وشغل باله به هو قضية الأديان ، وأي تلك الأديان أفضل ! وما هو الدين الحق من بين هذه الأديان . وكانت غاية السلطان من هذا السؤال هو إيقاع اليهودي في الفخ حتى إذا ما أجاب جواباً يناقض عقيدته وفضل ديانته على ديانة المسلمين أوقع به عقاباً صارما وجزاه جزاء كبيراً فيصادر أمواله ، ويصبح عندئذ في حل من الدفع .

أدرك ناثان ما كان يقصد السلطان من هذا السؤال ، فالتفت إليه وطلب منه أن يقص عليه قصة من القصص المعروفة هي قصة والد شفيق كان له ثلاثة أولاد يحبهم حباً جما ولا يميز بينهم أبداً ؛ وكان له خاتم ثمين ورثه عن أجداده ويريد المحافظة عليه بحيث يبقى في الأسرة ، فلا يخرج منها . ولما كان لا يريد التفريق بين أبنائه ولا التمييز فيما بين هؤلاء الثلاثة في الدرجة حار فيما يصنع، أيعطي الخاتم للابن البكر فيزعج بذلك الأخوين ويعكر بينهما صفو الأخوة وهو حريص جداً على أن تبقى رابطتها قوية فيما بين أبنائه ، أو يعطيه لشخص آخر من الأسرة ، وفي هذا العمل مخالفة لوصية الآباء ؟

وكان الرجل ذكياً ، تمكن بذكائه من إيجاد حل أرضى به أولاده الثلاثة . ذهب إلى صائغ قدير كلفه بأن يصنع له خاتمين يشبهان هذا الخاتم تماماً بحيث لا يمكن التفريق بينهما وبين الخاتم الأصلي . وقد صنع الصائغ ما طلب منه وأجاد الصنعة حتى صعب على الصائغ نفسه تمييز الخواتم الثلاثة .

ولما توفى ذلك الوالد الشفيق تسلم كل واحد من أولاده الثلاثة خاتما . وبعد مضى أمد ادعى كل واحد منهم بأن خاتمه هو الخاتم الحقيقي ، خاتم الأسرة . وقد حاول كل واحد منهم البرهنة على أن ما قاله هو الصحيح .

فلما سمع صلاح الدين بهذه القصة استحسنها ، وامتدح ذكاء « ناثان » وقربه إليه ، وغدا منذ ذلك الحين من أقرب الناس إليه ، وهي قصة تمثل وجهة نظرة الإنسانيين الذين نظروا إلى الأديان بنظرة التسامح نوعاً ما . أما القصة نفسها ، فقد كانت معروفة في أوربا ، وقد أخذها هذا الأديب « لسنك » ، وسبكها في قالب « دراما » شعرية ، تمثل آراء الشاعر ومشاعره أحسن تمثيل . حتى لقد قال الفيلسوف الألماني « شليكل » « إن هذه الدراما تمثل نفسية لسنك فن عرفها عرف لسنك كل المعرفة[1] » .

في سنة ١٧٥٢ للميلاد كان شاعرنا صاحب القصة في مدينة « وتنبرك » « wittenberg » . وكان قد تفرغ لكتابة رسائله « Briefen » وفصول « الإنقاذ » « Rettung » بعد أن حنكته التجارب ، وبعد أن تخرج من مدرسة « فولتير » تلك التي أنشأها هذا الأديب الفرنسي العظيم في قلب العاصمة البروسية وفي قصرها . تعلم على هذا الأديب شيئاً كثيراً ودرس عليه أصول النقد الأدبي التي عرف بها تلك الأصول التي أثارت في نفس صاحبنا الميل لدراسة الآداب الغربية ولا سيما آداب الشعب الإيطالي سليل الرومان ، وآداب الشعوب الشرقية ، ولا سيما الأدب العربي وتاريخ المسلمين[2] .

وكان مما قرأه (لسنك) من آداب الايطاليين بعض مؤلفات الفيلسوف الإيطالي « كاردانوس هيرونيموس » « Gardanus Hieronymus » « ١٥٠١ — ١٥٧٦ » وكان هذا الفيلسوف

(١) راجع Robertson. Nathan the wise, London. 1901. P. 1.

(٢) The Encyclopaedia Britannica vol 13 14 ed P. 967.

الإيطالى الكاثوليكى حر النزعة بالنسبة إلى رجال وقته ، واسع التفكير ، يعتنق مذهباً يعارض مذهبه ، هو مذهب « وحدة الوجود » يرى أن كل ما فى الطبيعة حتى يجرى فيه ماء الحياة حتى المادة الجامدة لا تخلو من الحياة . وأن الخالق فى الكون جميعه والكون جميعه فى الخالق بحيث لا نستطيع الفصل بين الاثنين . هذه هى الحقيقة ، حقيقة الله فى الكون ، إلا أن قليلا من الناس من يدرك هذه الحقيقة ، وقليل من الناس من يحاول الإدراك وفهم الحقائق (١) .

كانت فى آرائه هذه جرأة بالطبع بالنسبة إلى العالم الذى عاش فيه ، جرأة خلقت له مئات من المشاكل ، والمصاعب فيما بعد . وكان يرى بالإضافة إلى كل هذا بأن الأديان واحدة لها أهداف واحدة هى النظم الأخلاقية وضبط حياة الإنسان ، فيجب أن تستخدم هذه النظم فى خدمة الغرض الذى من أجله نشأت ، وللمحافظة على الوحدة ، ولذلك حذر من الخوض فى المواضيع الدينية والمشاكل الدينية باللغة المحلية ، لأن هذا الجدل يدعو إلى تبلبل رأى الأمة وتفرق صفوفها . أما فيما عدا الجدل من عقيدة فيصح لكل مواطن أن يعتنق ما يشاء من العقائد ، وله أن يدين بأى دين (٢) .

وبهذه الفكرة كتب الفيلسوف الإيطالى أفكاره فى : « De Subtilitate » تلك المحاورة « ديالوك » « Dialog » (٣) الفلسفية التى ينبرى فيها رجال يمثلون أربعة أديان للدفاع عن عقائدهم ودياناتهم التى يعتنقونها ، الديانة الوثنية الرومانية ، والديانة اليهودية ، والديانة المسيحية ، ثم الديانة الإسلامية . وقد حدث فى هذه المحاورة كل محام بما كان يعتقده أصحاب ذلك الدين . فتحدث على لسان الوثنى ، وتحدث على لسان اليهودى ، وتحدث على لسان المسيحى ، وتحدث على لسان المسلم ، وذكر دليل كل واحد منهم . وهذه محاورة جريئة بالطبع ، أوقعت المؤلف فى مزالق الكلام ، وهوجم على محاورته هذه هجوماً عنيفاً اتهم بأنه قصر فى دفاعه عن عقيدة المسيحيين ، وأنه أظهر المحامى المسيحى بمظهر المحامى الضعيف الذى لا يملك حججاً قوية لإفحام خصمه ، وقد كان فى ذلك متعمداً لا محالة (١) .

تأثر (لسنك) بآراء هذا الفيلسوف . وانبرى على الرغم من تفاوت عهده عنه للدفاع عن آرائه فدافع عنه فى « Vindicate » دفاعا أوقعه فى مثل ما وقع فيه ذلك الكاتب المفكر . ذكر بأن الفيلسوف لم يكن مقصراً فيما كتبه ولم يكن متعمداً إضعاف دليل المسيحيين . وكل ما فعله هو أنه صاغ دليل النصارى على لسانه . ولم يتمكن النصارى من إبراز أدلة أقوى من تلك الأدلة ، ولم يتمكن المسيحيون من إيراد حجج أقوى من تلك الحجج التى دونها كاردانوس (٢) فأضاف بهذا القول دليلا جديداً على تلك الأدلة التى كان يذكرها الناس فى إثبات مروق (لسنك) وزوغانه عن جادة الحق .

ولم تكن دراسة الفلسفة فى ذلك العهد من الدراسات التى يرتاح لها رجال الدين ، وكان لسنك وهو فى مكتبة « ولفنبتل » « wolfenbüttel » يقرأ كتب الفلسفة بنهم ويقبل عليها فى ساعات فراغه كل الإقبال . ولم يكتف بالمطالعة بل صار يخرج كتب الفلسفة إلى الأسواق ويشوق الناس إلى دراستها ، وكانت أحب فلسفة إليه هى فلسفة «رايمارس» « Reimarus » (١٦٩٤ ١٧٦٨ م) (٣) . وهذا الفيلسوف هو على رأس الفلاسفة الذين عرفوا باسم « Popularphilosophi » . وقد شاعت فلسفتهم فى القرن الثامن عشر على الأخص . وكانت تحاول تبسيط مبادىء فلسفتها وتقريبها من أذهان الناس للحصول على أكبر عدد ممكن من الأتباع (٤) . وكان هذا الفيلسوف من أولئك الفلاسفة الذين اعترفوا بوجود إله هو أساس هذا العالم وسببه . غير أنه كان كأكثر الفلاسفة « التوضيحيين » ينكر خوارق العادات ولا يؤمن بالمعجزات ، ويجحد تدخل الله فى شؤون العالم وفى شؤون الأفراد وكل ما فى الكون من مخلوقات . وكان يدعو

(١) راجع عنه قاموس الفلسفة لشميد مادة « كاردانوس » وقد ترجمت بعض مؤلفاته إلى الانكليزية واللغات الأخرى

(٢) راجع Schmidt. P. 92.

(٣) محاورة وقد كانت فنا من فنون الأدب عند اليونان راجع Hiryel. The Dialog 2, vol. 1895.

(١) Roberstson P. 10.

(٢) Robertson Jntroduction

(٣) Robertson Intro. وقد أخرج لسنك بعض مؤلفاته . Schmidt, P. 546, Straus 1862.

(٤) راجع Schmidt. P, 500

إلى « الديانة الطبيعية العقلية » ويهاجم أسفار التوراة والأناجيل وينتقدها انتقاداً مراً ، لذلك تعرض بالطبع إلى حملات رجال الدين عليه وإلى نقد قوى مرير[١] .

تعرض لسنك إلى نقد رجال الدين ، إلى نقد « كوتزة » « Goetze » على الأخص فكانت بينهما مهاترات علمية تدخل فيها أناس من عشاق الجدل الفلسفى الدينى ، وقد تمكن « كوتزة » هذا من إثارة مجالس الأقاليم على لسنك ، فأصدرت تلك المجالس أمراً إلى دوائر الرقابة تطلب فيه ألا يسمح للسنك بنشر أى شيء إلا بإذن من الحكومة ، فكان فى هذا القرار توفيق لرجال الدين .

وكان (لسنك) قد اطلع على آراء فيلسوف إيطالى آخر هو « بوكاجيو » « Boccoccio » (١٣١٣ — ١٣٧٥ م) الكاتب الإيطالى الفيلسوف .

وقد وجه هذا العبقرى كزميليه دانتى « Dante » (١٢٦٥ ١٣٢١ م) و « بترركا » « Petrarka » أنظار قومه نحو مثل جديدة ، نحو المثل الإنسانية التى تدعو إلى التسامح فى مقابل تعصب الكنيسة وتمسكها بآرائها الدينية . وقد حث قومه على دراسة الشعر واللغة والفلسفة ، وقد مهد هو وزملاؤه بذلك الطريق لما سمى فيما بعد باسم : « عصر النهضة والأحياء » « Renaissance »[٢] .

واتصل لسنك عن طريق الترجمة بهؤلاء فقرأ دكامرون Decamaron لبوكاجيو ، وكان هذا الأثر الأدبى المهم قد ترجم إلى الألمانية فى القرن الخامس عشر للميلاد وطبع فى « أوكسبرك سنة ١٤٨٩ للميلاد » . ومنه استل صاحبنا مادة « ناثان الحكيم » . أخذ من « دكامرون » عناصر القصة الأولى ، وأضاف إليها بعض العناصر الجديدة التى كانت شائعة عند الأوربيين فى ذلك الوقت . ولعل بوكاجيو نفسه كان قد أخذ قصصه من القصص الأوربية القديمة التى كانت شائعة قبل ذلك العهد فى أسبانيا حيث عاشت الأديان الثلاثة كان الناس يتحدثون عن ملك متسامح

(١) Scharer Article Lessing

(٢) Vorlander History of Philosophy P. 205.

حكيم وعن قصة الخاتم ، وفى أوربا تحدث الناس عن السلطان صلاح الدين وعن تساهله بالنسبة للمسيحيين واليهود .

وقد تطورت هذه القصة وأمثالها بمرور الزمن فنصت فيما بعد على أن الخاتم الحقيقى كان يعرف من بين الخواتم الأخرى بما كان يظهر منه من الأعمال الخارقة والمعجزات . وكان هذا دليلا على أنه هو الأصل وهو خاتم المسيحيين[١] . كما تطورت صورة ناثان إلى أن جعل لسنك صورة هذا الشخص تنطبق على صورة صديقه الفيلسوف اليهودى « موسى مندلسن Moses Mendelssohn » (١٧٢٩ — ١٧٨٦ م) والكاتب الذى عاش فى مدينة برلين . وكان شخصية فذة معروفة فى أوساط تلك المدينة حتى تمكن بفضل منزلته من تخفيف حدة البروسيين بالنسبة لليهود[٢] .

وقد ساعد « مندلسن » صاحبنا كثيراً وسعى عند تاجر من تجار مدينة « هامبرك » حتى أقرضه مالا طبع به بعض كتبه . وتأثر بكثير من آراء مندلسن ؛ فأخذ بأفكاره بالنسبة إلى الفلسفة اللاهوتية والأديان ولا شك فى أن لتلك القصص الدينية التى كان يسمعها من « موسى مندلسن » دخلا فى صقل عقلية لسنك وفى قصة « ناثان الحكيم » .

واستعان لسنك بعنصر آخر هو التاريخ الشرقى ذاته .

وكانت أوربا فى هذا العهد ولا سيما فرنسا قد تذوقت الأدب الشرقى وأقبلت عليه ، وسار الأدباء يبحثون بين ثنايا القصص الشرقى لينسجوا منه نسيجاً جديداً . وكان فولتير الذى تعرف عليه لسنك فى برلين ، والذى اتصل به اتصالا وثيقاً ، فى طليعة هؤلاء الكتاب الذين استعانوا بالخيال الشرقى وبتاريخ الشرق . ولفولتير هذا مسرحية زيير « Zaire » وكانت هذه المسرحية[٣] قد اكتسبت شهرة واسعة ومثلت فى برلين ، وكان لسنك بالطبع ممن حضر التمثيل ودرس الرواية وله « دراما محمد Mahamet » . تأثر لسنك فى « ناثان الحكيم » بقصة « Zaire » كثيرا

(١) Robertson. P, 30

(٢) The Encyc'opaedia Britauica Art Lessing.

(٣) راجع معجم لاروس مادة « Zaire »

Robertson Nathan London 1912 Uviversity Cembridge,

حتى إننا لنجد أوجه التشابه ظاهرة فى كثير من المواضع ، كما تأثر بآراء فولتير وبأفكاره السياسية ، حتى أما كن النقد تكاد تكون واحدة . وقد استعار منه حتى المصطلحات التى كان قد تخصص بها فترجمها إلى الألمانية .

صور « صلاح الدين الأيوبى » فى هذه الرواية وفى الروايات الأوربية الأخرى بصورة الملك الفيلسوف ، بصورة فيلسوف حديث يحمل آراء القرن الثامن عشر ويبشر بها بين الناس . فيدعو إلى « المذهب الإنسانى » الذى استولى على أفئدة الناس فى ذلك الوقت . ويحث الناس على اتباع الفلسفة التى كان يدعو إليها لسنك وأمثاله . فهو ملك شرقى وفيلسوف غربى فى آن واحد[1] .

ولم يكن لسنك من المستشرقين كما أنه لم يكن من المؤرخين ، ومعلوماته التاريخية عن الشرق معلومات عامة مأخوذة من هنا ومن هناك . أخذ حياة صلاح الدين من كتاب « تاريخ صلاح الدين سلطان مصر وسوريا » للأب دى مارن «Abbé Marin» الذى طبع سنة ١٧٥٨ م . كما أخذ معلوماته عن تاريخ الخلفاء من كتاب « تاريخ العرب فى أيام الخلفاء » للأب «دى ماريني» « Abbé demarigny » وقد طبع هذا الكتاب بالفرنسية عام ١٧٥٠ للميلاد . واستفاد من كتاب «التاريخ العام» « Universal History » الذى طبع بمدينة لندن عام ١٧٥٩[1] .

وحاول لسنك الرجوع إلى المصادر الأولى ، إلا أننا نشك فى قدرة هذا الشاعر على ذلك لأنه لم يكن يعرف العربية ، على أنه كان يستعين بالكتب المترجمة عن العربية . مثل ترجمات «Abbertus schulteus» وترجمة جلان (١٧٠٤ — ١٧٠٨) لألف ليلة وليلة[2] والترجمات الأخرى ، وكان يستعين بالمستشرقين أنفسهم أمثال المستشرق ريسكى « Reiske » الشهير . ومع ذلك فإن قصة « ناثان الحكيم » لا تمثل التاريخ كما تمثل الأفكار الإنسانية والمبادىء الفلسفية التى تمثل نفسية هذا الفيلسوف .

(بغداد) **جواد على**

(١) Robertson . Introduction . P,20 .

(١) Lessing . Entwurf . Robertson . Intro

(٢) نفس المصدر .

على هامش النقد :

« دفاع عن البلاغة »

تأليف الأستاذ الزيات

للأستاذ سيد قطب

(تتمة)

هل هناك مذهب جديد ؟

كان هذا هو السؤال الذى جمل الجواب عليه هو الفصل الأخير من الكتاب ، وناقش فيه من يدعون إلى العامية ، ومن يدعون إلى الرمزية . والعامية ليس من الضرورى أن تكون عامية اللفظ ، فهى عامية التعبير وعامية التفكير . وقد لا تكون الألفاظ عامية ، ثم تكون طريقة الأداء عامية ، كما تكون كذلك طريقة التفكير

وفى سياق بحث الموقف الحالى للأساليب العربية شرح تطورات أساليب النثر العربى شرحا مختصراً وافياً دقيقاً ، ولخص مذاهبه تلخيصا جميلا مفيداً ، ورتب على هذا التطور نتائجه المنطقية ترتيبا بارعا وصادقا فى الوقت ذاته .

وفى اعتقادى أن هذا الفصل هو أبرع فصول الكتاب وأدقها وأصدقها . وهو كذلك بحث جديد فى المكتبة العربية ، لم يلخص من قبل مثل هذا التلخيص .

وأحب أن أشرك القارىء معى فى تقدير قيمة هذا الفصل الجيد من فصول الكتاب .

جاء فى ص ١٢٥ :

« ... إن المذهب الكتابى أو الشعرى إما أن يكون مرحلة تطور لمذهب يتقدم به مبتدعوه ، وإما أن يكون رد فعل لمذهب يغلو فيه متبعوه . فأسلوب عبد الحميد بن يحيى إنما كان الطور الأول للاسلوب العربى الضيق الموجز ، دعت إليه مقتضيات المجتمع الجديد من تشعب أطراف الدولة ، وبدو ثمار الحضارة ، ودنو العربية من الفارسية . وأسلوب ابن المقفع الذى ظهر فى فجر الحضارة العربية كان طوره الثانى ، دعا إليه اتساع الخلافة ، وتنوع الثقافة ، وشدة اختلاط العرب بالفرس . ثم كان طوره الثالث أسلوب الجاحظ الذى اقتضاه نقل العلوم الأجنبية ، وازدهار المدنية العباسية ، وانتشار المقالات الإسلامية ، وتعقد الحالة الاجتماعية ، وتولد المعانى الحضرية ، واقتباس الآراء الفلسفية . ثم أترف المسلمون ، وتقلبوا فى أعطاف النعمة ، وتأنقوا فى مظاهر العيش ، فظهر طوره الرابع فى أسلوب ابن العميد المنمق المسجوع . وإلى هنا كان التطور فى النثر الفنى تطورا طرديا يسير من الضيق إلى السعة ، ومن الجزالة إلى الرقة ، ومن الترسل المتوازن إلى الصنعة المطبوعة . فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله بدت على الكتابة أعراض الفساد والوهن ، فكثرت المعانى المزيفة ، وانتشرت الصنعة المتكلفة ؛ وكان من ذلك مذهب القاضى الفاضل وهو الطور الخامس من أطوار الأسلوب العربى ، غلا فيه أصحابه حتى أفسدوا الفكرة بالتفاهة والمبالغة ، وشوهوا الصورة بالزخرف الكاذب والسجع المجتلب . ومن هنا كان رد الفعل بظهور طريقة ابن خلدون ، إذ رغب عن السجع ، وزهد فى البديع ، وسار باللفظ وراء المعنى . وقد صرح بذلك فى كلامه عن كتابته لأبى سالم أحد ملوك الأندلس قال :

« وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل ، بدون أن يشارك أحد ممن ينتحل الكتابة فى الأسجاع ، لضعف احتمالها وخفاء المعانى فيها على أكثر الناس ، بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغربا عند من هم من أهل هذه الصناعة »

« وآثر النابغون من خريجى المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة ، الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية ، لجريانها مع الطبع ، وملاءمتها لروح العصر ، ومشابهتها الأساليب الغرب ، فظهرت مهذبة عذبة فيما كتب قاسم أمين ، وفتحى زغلول ، ولطفى السيد ، ومن جرى مجراهم . وانفرد بالأسلوب البديعى رجال دار العلوم ومن يمت بسبب إلى الأزهر ، من أمثال الشيخ حمزة فتح الله ، وتوفيق البكرى ، وحفنى ناصف ، ومن حذا حذوهم . وبدت على أسلوب هؤلاء مظاهر التكلف ، فأسرفوا فى المحاكاة ، وأوغلوا فى الصنعة ، وتشددوا فى القياس ، وتعصبوا فى استعمال اللغة . كما بدت على أسلوب أولئك مظاهر التطرف ، فتجوزوا فى القواعد ، وتسامحوا فى اللغة ، واستخفوا

بجمال الصياغة ، وهبطوا إلى مستوى العامية . وفى ذلك الوقت نشأت على أقلام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكتين طريقة ثالثة فيها الفكرة والطرافة والحركة والتنوع ، ولكن فيها الركاكة والتساهل والدخيل والعجمة . فكان من رد الفعل الذى لا بد منه لهؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها فترتضيها الأذواق جميعا . تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربى الخالص مكمَّل النقص بما فاته من صور البيان ، لانقطاع أهله عن مسايرة التمدن الفكرى الحديث. استبانت هذه الطريقة فى نثر المنفلوطى ، كما استبانت فى شعر البارودى . ثم نهجها الكتاب الموهوبون المطبوعون فتميزت بالرقة والدقة والسلامة والرصانة والقصد . ثم نبتت طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد ، فبلغوا بالنثر الفنى منزلة لم يبلغها فى عصر من عصوره . فالأسلوب الذى كتب به المنفلوطى والبشرى والرافعى ، ويكتب به العقاد وطه حسين والمازنى ، هو ثمرة التطور الحديث فى الأدب والعلم والفن والحضارة . وهو وإن اختلف بين الكتاب فى القوة والضعف ، والعمق والضحولة ، والدقة والتجوز ، والتركز والانتشار ، يشترك فى الصفات الجوهرية للغة وهى الصحة والنقاء والمرونة ، وفى الخصائص الأصيلة للبلاغة وهى الأصالة والوجازة والتلاؤم ... ... »

لقد استطردت فى الاقتباس من هذا الفصل القيم ، لأننى معجب بتصوير هذا التطور والتسلسل فى ذلك الحيز الضيق بمثل هذه النصاعة ؛ ولأننى أريد أن أدعو وزارة المعارف للانتفاع بهذا الفصل خاصة — إن لم يكن بالكتاب كله — فى مدارسها ومعاهدها بدل تلك الفصول القاصرة البائسة التى يدرسها طلاب المدارس الثانوية !!

***

والآن وقد استعرضت وناقشت الأسس العامة فى كتاب « دفاع عن البلاغة » يعن لى أن أناقش بعض الموضوعات الفرعية التى جاءت هنا وهناك فى الكتاب

يناقش المؤلف رأيا لأميل زولا فى البلاغة ، واستعراض هذه المناقشة مفيد فى بيان رأى المؤلف وزيادة إيضاحه .

قال إميل زولا :

« ليس من مطلق الحق — وإن عارض بوفون وبوالو وشاتوبريان وفلوبير — أن الكاتب يكفيه أن يعنى كل العناية بأسلوبه ليشق له فى الأدب طريقا يبقى على الأبد . إن الشكل عرضة للتغير والزوال بسرعة . ولا بد للعمل الكتابى قبل كل شىء أن يكون حيا ؛ ولا يمكن أن يكون حيا إلا إذا كان حقا . والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية »

ثم يقول بعد ذلك :

« وهل نستطيع أن نتبين الكمال الفنى فى أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرؤهما مترجمين ؟ »

ويعلق الأستاذ الزيات على هذا الرأى فيقول :

« وهذا القول ظاهر البطلان ، لأن المخلوقات الحية التى يلدها ذهن الكاتب ، لا يتسنى لها البقاء على توالى الأعقاب والأحقاب إلا بالأسلوب كما قال شاتوبريان »

« أما قوله : « وهل نستطيع أن نتبين الكمال الفنى فى أسلوب هوميروس وفرجيل ونحن نقرؤهما مترجمين ؟ » فرماه أن روائع اليونان والرومان لم تخلد على الدهر إلا بمعانيها المبتكرة ووقائعها المشوقة ، وعواطفها الصادقة ، وشخوصها الحية ، بدليل أننا نقرؤها اليوم بمعانيها لا بمبانيها ، وبفكرها لا بصورها . فلو كان خلودها منوطا بدقة الصياغة وجودة الصناعة لما عاشت بالترجمة . ثم يترتب على ذلك خطأ القول باتحاد الصور والأفكار فى الأسلوب ، لأننا حين نقرأ الإلياذة مثلا فى الفرنسية أو فى العربية لا نقرأ منها عين الموضوع .

« والحق الذى تؤيده الدلائل أن جمال الأسلوب وحده هو الذى ضمن الخلود لهذه الروائع ؛ فإن الثابت بالسند المتصل والخبر المتواتر أنها كانت آية عصرها فى البلاغة ، ولولا ذلك ما روتها الرواة ولا ترجمتها التراجم »

ونحن نرى أن إميل زولا كان على كثير من الحق وهو يقول : « والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية » وليس هذا القول « ظاهر البطلان » كما يرى الأستاذ الزيات ؛ كما أن تعليق الأستاذ بعد هذا صحيح ، ولا تناقض صحته مع صحة رأى زولا فى شىء . فالمخلوقات الحية التى يلدها ذهن الكاتب لا يتسنى لها البقاء إلا بالأسلوب »

ولكنها يجب أن تكون « حية » ليحتفظ الأسلوب لها بالحياة وإلا عجز عن منحها الحياة !

وكذلك نحتاج إلى شيء من التحفظ فى تعليق الأستاذ على خلود روائع هوميروس وفرجيل ؛ فليس الأسلوب «وحده» هو الذى ضمن لها الخلود ، فلا بد من عنصر آخر حى مع الأسلوب ، كما اتفقنا من قبل ، الأستاذ وأنا ، على هذا الأصل الكبير (فى أول مقال)

ويستطرد الأستاذ فى تعليقه فيقرر فى شأن الترجمة رأيا صحيحا نرجو أن ينتفع به من يتصدون لترجمة روائع الأدب العالمى ! ذلك حين يقول فى ص ٧٢ :

« والترجمة الصحيحة لا تنقل أفكار الكاتب أو الشاعر وحدها عن الأصل ؛ إنما تنقل مع ذلك إشراق روحه ، وسمو إلهامه ، ولطف شعوره ، ونمط تفكيره ، وخصائص أسلوبه . فلو أن ترجمانا ضعيف العربية من تراجم الحاكم حدثته نفسه أن يعرض لإحدى روائع شكسبير فنقلها نقلا لفظيا بأسلوبه الذى يترجم به عروض الأحوال ، أو أصول الأحكام ، فهل تقول إذا استطعت أن تقرأ ما كتب إنك قرأت شكسبير ؟ أم ترى أنك قرأت ألفاظا كالعظام المروقة المبعثرة ، لا تمثل من أى حيوان معنى من معانيه ، ولا صورة من صوره ؟ ... الخ »

وهذا دستور جيد للترجمة . وأشهد أنى أقرأ فى هذه الأيام مترجمات لا أدرى إن كانت على رأى البحترى ، إن كان صنع إنس لجن ، أم صنع جن لإنس ! فلعل من يتصدون للترجمة ينتفعون بهذا الدستور القويم !

* * *

وأخيراً نقف أمام لفتة طيبة تقرن فحولة الفن بفحولة الأمة عامة وفحولة البطل منها خاصة ؛ وهى لفتة صادقة ولكننا لا نثبتها هنا لمجرد الصدق ، بل للتوجيه أيضا :

جاء فى ص ١٢٢ :

« وازن بين عصر وعصر فى الأدب ، أو بين أديب وأديب فى الأسلوب ، تر الفرق بينهما إذا حللته لا يخرج عن قوة الرجولة فى هذا وضعفها فى ذاك . فعصر الجاهلية عند العرب واليونان ، وعصر الفتوح عند المسلمين والرومان ، وعهد الفروسية عند الفرنسيين والطليان ، كانت أزهى عصور البلاغة ، لأن الرجولة كانت فيها بفضل النزاع والصراع فى سبيل الحياة والغلبة والمجد والمرأة أشد ما تكون تماما واضطراما وقوة . فلما قتل الترف الرجولة ، وأذل العجز النفوس ، زهقت روح الفن ، وذهبت بلاغة الأسلوب ، وأصبح أدب الأديب سخفا وزيفا وثرثرة »

وجاء فى ص ١٢٣ :

« إن الأدب البليغ كامن فى البطل على أى صورة كان . فهو إن أنتجه برز فيه ، وإن لم ينتجه شجع عليه . لذلك ازدهر الأدب فى ظلال أغسطس وبركليس والرشيد وسيف الدولة . وما دام كبراؤنا لم يخلقهم الله من الأبطال ولا من عباقرة الرجال ، فهيهات أن ينتجوا الأدب أو يفهموه أو يحبوه أو يعضدوه أو يقدموا أهله . وسيظل هذا النور الضئيل من الأدب القوى الحر محصوراً فى ظلام العمى والجهل ، حتى تقوى الأمة فينتشر ، وينبغ فيها القادة فيزدهر . وسيعيش رجاله القلال المخلصون معتكفين فى المكاتب اعتكاف النساك فى الصوامع ، يمثلونه على بصر الطبيعة ، وينشدونه على سمع الزمن ، حتى تقوى دولة الحق والجمال ، فيجلسوا فى الصدر ويمشوا فى المقدمة »

إن الذى يقرره الأستاذ عن الصلة بين فحولة الأدب وفحولة الأمة أو الفرد صحيح ؛ ولكنى لا أوافقه فى تشاؤمه من العصر لأنه لم يوجد فيه بعدُ أغسطس وبركليس والرشيد وسيف الدولة. إن الأدب لم يعد اليوم فى حاجة إلى أمير يرعاه أو كبير يشجعه . لقد انتهى عهد الأمراء والكبراء . والعصر عصر الشعوب والأفراد . والأمة العربية الناهضة اليوم بمجموعها عوض عن أمراء الإقطاع فى عهد سيف الدولة . فللأدب العالى أن يزهو اليوم مستقلا بنفسه ، وللأدباء اليوم أن يسيروا فى الأرض غير معتمدين على ذراع أمير أو كبير .

وما نظرت يوما إلى الأديب فى نفسى وإلى أى أمير أو وزير أو كبير إلا وجدتنى أكبر وأشد قوة ، وإلا وجدت هذا الأمير أو الوزير أو الكبير فى حاجة إلى رعايتى قبل أن أكون فى حاجة إلى رعايته ! وهذه هى الدعوة التى يحسن أن نهتف بها للأدب والأدباء ليترفع بعض من لا يترفع منهم ، عن الزلفى للأمراء والوزراء والكبراء ![1]

سيد قطب

(١) فصل من كتاب (كتب وشخصيات) يصدر قريبا

الأدب في سير أعلامه :

ملْــــتُن . . .

[القيثارة الخالدة التي غنت أروع أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للاستاذ محمود الخفيف

— ١٨ —

حربه على القساوسة :

وأردف ملتن هذا الكتيب بكتيب ثان في يوليو سنة ١٦٤١ رد به على (أشر) أحد كبار الأساقفة، وكان كتيبه الثاني صغيراً، وقد عد رده على هذا الأسقف جرأة عظيمة ومبالغة منه في الثقة بنفسه؛ وذلك أن أشر كان من أوسع الأساقفة أفقاً في تاريخ الكنيسة ومسائلها؛ قضى نحو ثمانية عشر عاماً من عمره في هذه الدراسة حتى أصبح من أفذاذ طائفته. وقد جادله ملتن جدالا عنيفاً، ولجأ إلى المنطق في مجادلته. ومن أمثلة ذلك قوله « ترجع الأسقفية إما إلى أصل إنساني أو إلى أصل إلهي، فإن كانت الأولى جاز القضاء أو الإبقاء عليها حسبما توحي المصلحة، وإن كانت الثانية وجب أن يقوم الدليل على ذلك من الكتاب المقدس، فإنه إن لم يقم هـذا الدليل فلن يكون لأي تأكيد إنساني لها أية قيمة يعول عليها »، وبعيد أن يعجز ملتن خصمه بمطالبته بهذا الدليل يستعرض ما اعتمد عليه من المراجع فيسفهها ويسخر منها في لغة هي أقرب إلى السباب منها إلى النقد، ولن يخشى ملتن أن يسجل في كتيبه احتقاره لآباء الكنيسة القدامى وزرايته عليهم وعلى كل من يخالفه سواهم فيما يذهب إليه مهما يكن من خطره أو سلطانه ...

ولم يلبث أن أعقب في السنة نفسها كتيبه الثاني بثالث؛ وذلك أن (هول) ردعلى جماعة سمكتنسي بكتيب جديد يدافع به عن كتيبه الذي سماه الإعلان المتواضع. فانبرى له ملتن وراح يسخر منه ما وسعته السخرية، وجرى في ذلك على طريقة عجيبة، فهو يورد رأياً من آراء هول ويسوقه مساق التحدي في صيغة سؤال أو اعتراض ثم يجيب عليه متهكماً ساخراً حتى لا يتورع أن يرد على أحد الاعتراضات بضحكات أثبت صورتها هكذا ... ها! ها! ها! على نحو ما يفعل الطلاب إذ يتجادلون في أمر من الأمور.

ولم يستطع ملتن أن يملك زمام قلمه إذ كان يرد على أحد المتحمسين من الفئة التي يبغضها ويحاربها في عنف بالغ، لذلك جاء من عبارات الهجاء والفحش بما نعجب كيف يصدر مثله ممن كان له مثل ثقافته وأدبه ونفسه الشاعرة وحسه المرهف، وتلك في الحق عجيبة من عجائب عقله وخلقه ...

وفي مستهل سنة ١٦٤٢ نشر ملتن كتيباً رابعاً، وجمع في هذا الكتيب كل ما واتته به ثقافته ودراسته من المعرفة وكل ما جادت به قريحته من الآراء وساقها جميعاً حربا على خصومه القساوسة، وكان في هذا الكتيب أكثر عناية بالشرح والاقناع منه بالسخرية والاقذاع، لذلك جاء خلواً من الحشو بريئاً من هجر القول وإن لم تكن لهجته فيه أقل حماسة منها في سالفيه، ولهذا الكتيب الرابع أهمية من ناحية أخرى، وذلك أن ملتن أبان فيه بعض آرائه في الدين والسياسة.

ففي الدين أعلن تمسكه بالبرسبيتيرية وأنها خير نظام لإدارة الكنيسة، فلا يصح أن يترك لهؤلاء القساوسة الإشراف على الكنيسة فيرتفع بعضهم فوق بعض درجات، ويتخذوا من مناصبهم الدينية سلاحاً للعدوان والطغيان والجشع، وإنما يجب أن يكون المشرفون على إدارتها قوم يرضى عنهم الناس ويختارون بمشيئتهم ويكونون في مناصبهم سواء، وهو في ذلك إنما يشير باتباع نظام كلفن في حماسة وإخلاص.

وذكر أحد القساوسة في هذه المعركة أن آدم هو أول قس، فكان مما رد به ملتن على ذلك قوله: إنه إزاء ما يراه من شدة ولوعهم بالقديم في الدفاع عن قضيتهم يوافقهم فيما يزعمونه، بل إنه يذهب في القدم إلى أبعد مما ذهبوا؛ فإذا كان آدم في البشر هو أول قس، فقد كان إبليس من قبل آدم هو في الملائكة القس الأول. ويخرج ملتن من ذلك بنتيجة وهي أن القساوسة في أصلهم ينتمون إلى الشيطان، فحسبنا من بغض هذا النظام أنه من عمل الشيطان.

ويؤمن ملتن بعقيدة الثالوث على الرغم من فكرته السامية التي تجلت في إنكاره تصور الله وتحديده ويصلي مستغيثاً بهذا الثالوث كمثل من يؤمن بهذه العقيدة في أصلها؛

ويميل ملتن إلى الاعتدال والتسامح فى معاملة أهل المذاهب الأخرى من غير البيوريتانز ، فوجود هؤلاء المخالفين أمر طبيعى لأن هؤلاء يعدون قبل الإصلاح الجديد كالآلام الشديدة التى تسبق كل وضع ؛ وما من شيء يتغير من حال إلى حال فى عالم المادة إلا بعراك مع العناصر الأخرى المضادة له ، وفى المصنوعات لا بد من ذهاب بعض المادة فى التسوية والتهذيب ، وما من تمثال من المرمر يقام أو من صرح يبنى إلا إذا أزيل كذلك شيء مما علق به .

ولا يسع ملتن إلا الموافقة على عقوبة الطرد من الكنيسة ولكن على ألا يستعمل هذا الحق إلا بمنتهى الحذر وبعد التحرى الدقيق وطول الأناة والوثوق من أن المذنب يستحق تلك العقوبة .

ولا يزال ملتن فى كتيبه هذا مواليا للملكية ، وغاية ما يسمى إليه أن يتخلص الملك وأن تتخلص انجلترة من طغيان القساوسة . وفى رأيه أن القساوسة هم الذين يوحون إلى الملك الطغيان والاستبداد ، لأنهم بتعصبهم وحرصهم على مناصبهم ومغانمهم يكرهون كل رأى حر ، ومتى لمحوا رأياً حراً رأوا فيه نذر الفتنة وخوفوا الناس من عواقبه وأشفقوا على النظام والهدوء من الفوضى المزعومة ، هذا إلى دسائسهم وسوء مكرهم وافترائهم الكذب على من يخشونه من الناس ؛ وإنه ليرى فيهم بذلك وبغيره أصلح أداة للطغيان . ولقد اعتادت الكنيسة أن تتخذ من الكتاب المقدس سلاحا تشهره فى وجه الحرية ، ووسيلة إلى الجشع الذى لا يشبع والطموح الذى لا يقف عند حد .

وجاء فى كتيبه هذا فيما جاء من آرائه طعن شديد على الجامعات ؛ فما إن زال ملتن حانقاً على الجامعة وأسلوب التعليم بها بعد أن تركها بعشر سنوات ؛ وجاء رأيه عن الجامعات عرضاً فهو يعجب كيف أن أناساً علم من أمرهم أنهم أهل ثقافة وعلم يدافعون عن الكنيسة بكتاباتهم ؛ ويرد ذلك إلى أنهم اكتسبوا ما يسمونه علماً فى الجامعات ، فقد قصدوا إليها يبتغون المعرفة الصحيحة ، ولكنهم لم يجدوا هناك إلا ألوانا من السفسطة وضروباً من تعاليم القساوسة سدت بها حلوقهم فعاقت دخول الفلسفة الصحيحة ، كما خنق أصواتهم إلى الأبد ما امتلأت به حناجرهم من لغو ميتافزيق ...

وفى سنة ١٦٤٢ نشر القس هول وابنه كتيباً عنيف اللهجة نابى العبارات وجها فيه إلى ملتن مطاعن شديدة تناولت فيما تناولت شخصه ومسلكه إبان طلبه العلم بالجامعة ، وكأنما أرادا أن يحارباه بسلاح من أسلحته لكى يذيقاه مرارة المطاعن الشخصية . والحق أنهما أوجعاه وملآ قلبه بكتيبهما هذا غيظاً شديداً وحنقا ولاسيما أنهما افتريا عليه ماليس من خلقه ونسبا إليه ما هو نقيض ما عرف عنه من استقامة وطهر وعفة حرص عليها أشد الحرص سراً وعلانية حتى باتت من أبرز صفاته وأخصها ...

اتهمه هول وابنه أنه لسوء مسلكه فى الجامعة قد لفظته كما تلفظ الحلوق القيء ، فذهب إلى منزل على مقربة من لندن حيث كان يقضى نهاره فى الفسوق والفجور وليله فى أماكن ومواخير الفساد ، وحيث راح يغازل أرملة غنية بغية الزواج بها .

ورد ملتن بكتيب كان خامس هاتيك الكتيبات فذكر أنه ما كان ليعبأ بما يقولان لولا أنه لصلته بجماعة سمكتمنسى ولإخلاصه لواجبه فى القضية التى هو بصددها يحرص على أن يطهر اسمه مما حاولا أن يلصقاه به ، ومهد بهذا لحديث طويل عن نفسه يعد تاريخاً لحياته حتى ذلك الوقت ...

نفى عن نفسه أن الجامعة لفظته ، فها هو ذا يحمل شهادة من أكبر شهاداتها ، ولقد كان هناك كما يعرف أهلها جميعاً موضع التوقير والمحبة ، وكان يقضى أصباحه فى قراءة أعظم المؤلفين وفى تقوية بدنه بالرياضة ، أما أمساؤه فلم يعرف فيها فجوراً ولالهواً اللهم إلا ما كان يشاهده من تمثيل مسرحيات الكلية فى كيمبردج إن كان يعد هذا من الفجور .

ويشير ملتن إلى عزلته بعد أن ترك الكلية وإلى دراساته التى أخذ نفسه بها فى غير رفق ، هنالك حيث قرأ فيمن قرأ أفلاطون وندّه زينوفون قراءة درس وتمحيص و « حيث أعنى إذا تكلمت عما علمته من الحكمة والحب الجانب الحق منهما ، ذلك الجانب الذى ليس غير الفضيلة كأسه الساحرة التى يطاف بها على من يستحقونها فحسب . أما الذين لا يستحقونها فتطوف عليهم شيطانة نزلت باسم الحب وأهانته بكأس مزاجها شراب مسكر ثقيل ؛ وتعلمت كيف تبدأ فى النفس وكيف تنتهى فيها أولى غايات الحب وأهمها فتلد توأميها السعيدين : العلم والفضيلة .

ويعد ملتن قارئيه أنه سوف يتكلم عن الحب الصحيح أكثر مما تكلم وذلك « فى وقت هادئ لا شتائم فيه ، لا فى هذه الحلبة القائمة إذ ينبح الخصوم بالباب كما تعلمون » .

ويعود إلى حيث العفة فيقول : « إن من يحب ألا يخلق

دونه الأمل فى أن يكتب مايعظم وقعه فى النفس فعليه أن يكون هو نفسه قصيدة صحيحة ، أعنى مزيجاً من أجمل الأشياء وأشرفها بهذه الفكرة يصحبها جمال فى طبيعتى وكبرياء شريفة فى نفسى ونظرة منى سامية إلى ذاتى سواء فيما سلف من حياتى وفيما استقبل منها ؛ بهذا كله لا أزال أعلو على ذلك التدهور العقلى الذى لا بد أن ينحط إلى أسفل منه من نثر نفسه الفسوق والفحشاء » .

ويقول إنه قد تعلم كسبيحى أن فقدان العفة فى الرجل وهو أكمل الزوجين جنساً وهو صورة الله ومجده ، أكثر عيباً منه فى المرأة التى هى مجد الرجل فحسب ؛ وأن فى الجنة ألحاناً قدسية لن يفهمها إلا من لم يدنس بالنساء بدنه . وتطرق من هذا إلى قوله إنه لكل عاقل يفضل أن يتزوج بعذراء فقيرة على أن يتزوج بأرملة غنية .

وينتقل ملتن بعد الدفاع إلى الهجوم ، فيعود إلى التنديد بالأساقفة وجمود عواطفهم وتعصبهم وجهلهم وحماقاتهم على نحو لا يسهل معه أن نقول أيهما كان أقذع لفظاً وأفحش هجواً : ملتن أم خصمه هول .

بهذا الكتيب الخامس تنتهى الحرب بين ملتن والقساوسة ، وهى جانب من جوانب دفاعه عن الحرية ، وهو هنا إنما يدافع عنها أمام التعصب الفكرى الذى هو من أشد أعدائها خطراً عليها .

ولا بد من نظرة إجمالية فى هذه الكتيبات الخمسة بعد أن بينا موضوع كل كتيب منها والدافع الذى حمل ملتن على كتابته .

يخطئ من ينظر إلى هذه الكتيبات على أنها عمل أدبى ، فما كانت فى الواقع إلا حرباً قوامها الحماسة والعنف ، لا يعنى صاحبها إلا أن يصيب فيصمى ، أو يضرب فيهزم ، وشتان بين هذا وبين العمل الأدبى الذى يقيمه صاحبه على أساس من الفن وتكون قوامه فكرة إيجابية فيبنى كما يهدم ويتبين ما يأخذ مما يدع ، ويتفنن فى إبداع الصورة وفى اختيار اللفظ وإحكام النسج لكى يجمع بين وضوح الفكرة وجمال الأداء .

لهذا كان يجمع ملتن فى كتيباته هذه بين السمو والإسفاف والبلاغة والركاكة والجودة والغثاثة ، والحجة الناصعة والشتائم المقذعة ، والفلسفة الرصينة والتفاهة المشينة ، والغرض النبيل والطعن الشخصى الوبيل ، لا يعنيه إلا أن يؤلم ويوجع ويشفى سخيمة صدره ، وأن يكون من وراء كتيباته أثر عميق فى أذهان الناس ونفوسهم وضجيج شديد يتجاوب العصر صداه . ولقد نجح فيما أراد نجاحا كبيراً فهز نفوس قومه هزاً قوياً وزلزل القساوسة زلزالا شديداً .

وكان أسلوب ملتن فى الجملة أسلوب الشاعر العظيم إذا كتب على غير أصالة منه فى النثر ، لذلك كان يأتى بكثير من الصور والأخيلة الشعرية فى مجازاته وتشبيهاته واستعاراته ويستغرق فى المحسنات اللفظية ما وسعه الاستغراق ، كما كان يعمد إلى الميثولوجيا أحيانا فيخيل إليك من بعض فقراته أنك تلقاء شعر لا ينقصه إلا الوزن والقافية ، على أنك تقع بين الفينة والفينة على صفحات له يشرف بها على الغاية من بلاغة العبارة وإشراق اللفظ ومتانة السياق وبراعة الاتزان بين الجمل والاتساق .

أما آراؤه التى أوردها فيها وإن لم يقصد إلى ذلك فترينا أنه كان حتى ذلك الوقت مؤمنا بعقيدة الثالوث فى أصالتها وإن كان برسبتيرياً من حيث إدارة الكنيسة ، بيوريتانياً من حيث المذهب مع شيء غير قليل من الاعتدال ، ملكياً من حيث السياسة ، كما ترينا أن أقوى عواطفه يومئذ كانت عاطفة الدفاع عن الحرية وشدة محبته إياها ...

على أن حبه الشديد للحرية سينتهى به فيما سنرى من تطور فكره إلى انطلاقه من تلك الآراء جميعاً ، فينفر من عقيدة الثالوث ومن مثيلاتها من العقائد لأنها تستند إلى العقل ولا تتفق مع ما يجب من حرية الفكر ، وينفر من البرسبتيرية لأنها نظام جامد لا تسلم له أن يعيش ويفكر كما يرى ، وينفر من الملكية لأنها سوف تقيم الدليل فى السنوات المقبلة على تمسكها بالاستبداد وكراهتها روح الحرية .

واقد كانت هذه الكتيبات آخر ما كتب وقلبه عامر بالأمن ونفسه متطلعة إلى النصر ، فلسوف تنهار الآمال واحداً بعد واحد ؛ فيتزوج بعذراء فيجد الصدمة الأولى لآرائه وكبريائه فى هذا الزواج ويكون من أشد ما يعكر عليه مستقبل حياته ؛ وتظهر له البرسبتيرية وليست أقل تعصباً وحماقة من الأسقفية ؛ ويلتفت باحثاً عن الحرية فلا تنزل من السماء كما أمل واستبشر لتجعل من انجلترة مدينة الله على الأرض ، ويقلب الشاعر كفيه فى حسرة وينتئس قلبه الكبير وتتكدر روحه العظيمة فيفقد الثقة فى الأرض ومن عليها ويتجه ببصره صوب السماء ، ويلتمس فى التغنى بألحان فردوسه العزاء .

(يتبع) **الخفيف**

الشاعران المتشابهان

الشابي (التونسي) والتجاني (السوداني)

للأستاذ أبي القاسم محمد بدري

[تتمة ما نشر في العدد الماضي]

تصوير الأحداث الوطنية :

الشاعران اشتركا في البواعث التي تستفز الإنسان إلى النطق بشعر متفق في المعنى والغرض لما بينهما من التشابه في كثير من نواحي الحياة كما قدمنا ، فكلاهما عاش حياة مليئة بالأهوال ، زاخرة بالكفاح والنضال . وبرم كل منهما بما يجري بين أهله وقومه ، مستهجناً حياة شعب يعاني متاعب الاستعباد وآلام الاستبداد . ولقد بذل كل منهما جهده في تصوير أحوال شعبيهما حفزاً للشعور ، واستفزازاً للنفوس المكلومة لتصحو من غفوتها ، وتهب من رقدتها ، وتنهض وتركض حتى تلحق بركب الأمم المسرع المجلان الذي لا يعين العاجز ولا ينتظر المتخلف الكسلان . إنهما أجادا وأفادا ، كأحسن ما يطلب ذلك من شاعرين عظيمين أديا رسالتيهما في البلاغ والبيان أداء كاملا واضحاً في مبناه ، قوياً في معناه ، مؤثراً بألفاظه وموسيقاه ، قال الشابي مخاطباً شعبه .

ليت لي قوة العواطف ياشعبي فألقي إليك ثورة نفسي
ليت لي قوة الأعاصير لكن أنت حي يقضي الحياة برمس
أنت روح غبية تكره النور وتقضي الدهور في ليل حدس
أنت لا تدرك الحقائق إن طافت حواليك دون حس وحس

إلى أن قال : —

في صباح الحياة ضمخت أكوا   بي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدمتها إليك فأهرقت   رحيقي ودست يا شعب كأسي
فتألمت ثم أسكت آلا   مي وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضدت من أزاهير قلبي   باقة لم يمسها أي إنس
ثم قدمتها إليك فزقت   ورودي ودستها أي دوس
ثم ألبستني من الحزن ثوباً   وبشوك الصخور توجت رأسي

ثم قال لما يئس من الإصلاح وبرم بالحياة وحينما ذهبت صحته أدارج الرياح ولم يسمع قومه الأنين والنواح : —

هأنا ذاهب إلى الغاب يا شعـ   ـبي لأقضي الحياة وحدي بيأسي
هأنا ذاهب إلى الغاب علّي   في صميم الغابات أدفن نفسي
ثم أنساك ما استطعت فما أنـ   ـت بأهل لخمرتي ولكأسي

ولكن هيهات أن ينساه وهو قد ترعرع فوق أرضه ونشأ تحت سماه . إنه يحثه للنهوض ويدفعه للعمل السريع بعد سكب روح الأمل البديع فيه ، وذلك يتضح في خطابه الطير الذي يدري معنى الحياة ، ويعرف أن طيب عيشها لا يتاح لمن سلبت حريته ، ومات حسه وبلد شعوره ، وانطفأت جذوة آماله ، وغاض معين أحلامه .

سوف أتلو على الطيور أناشيـ   ـدي وأفضي لها بأحزان نفسي
فهي تدري معنى الحياة وتدري   أن مجد النفوس يقظة حس

ويتبين لك عند إنعام النظر أنه لم ييأس من الإصلاح بل كان يستبعد زمنه ؛ لأن شعبه لم يبلغ سن النضج ولم يقف على سوقه ينافح ويكافح ليرد حريته المسلوبة فيحظى بكمال استقلاله ، ويرغم غيره من الأمم على احترامه وإجلاله . وفي القول التالي يؤنب بني قومه لما استخفوا بقوله ، وأشاحوا معرضين عن سماع صوته .

أيها الشعب أنت طفل صغير   لاعب بالتراب والليل يمسي
أنت في الكون قوة لم تسسها   فكرة عبقرية ذات بأس
أنت في الكون قوة كبلتها   ظلمات العصور من أمس أمس
والشقي الشقي من كان مثلي   في حساسيتي ورقة نفسي
هكذا قال شاعر ناول الشعـ   ـب رحيق الحياة في خير كأس
فأشاحوا عنها ومروا غضابا   واستخفوا به وقالوا بيأس
« قد أضاع الحياة في ملعب الجن   فيا بؤسه أصيب بمس »
« طالما حدث الشياطين في الوا   دي وغنى مع الرياح بجرس »

ويشبه التجاني الشابي في رقة الإحساس ودقة الشاعر . فهو نفس مرهفة مضطرمة ، وقلب خفاق بلواعج الحب لوطنه ، والإخلاص لقومه ، يثور لأحزانه ويتألم لآلامه وأشجانه . وقلب التجاني هو قلب الشاعر الصادق الذي يعد بمثابة أداة تصوير واعية تلتقط ما يتساقط عليها من ألوان الحوادث ومشاكل الوجود ، ومسرات الحياة وحسراتها . عبرت نفس التجاني الثائرة عما يجيش في قرارتها بهذه الأبيات الشاكية الصارخة في قصيدة مطلعها (ثورة) فقال .

من لهذا الأنام يحميه عنى | قلبى صارى وطرسى مجنى
هو فنى إذا اكتهلت وما زا | ل على ريِّق الحداثة فنى
نهلت من دمى الحوادث واستر | وى يراعى مما يدفّع دنى

إلى أن يقول : —

وطنى فى الصبا الدنى والتمائـ | ـل ونفسى ومن أحب وخدنى
هذه يا أبى تصاوير ما تبـ | ـرح دنياى أو تزايل كونى
يصنع الغاب مزهرى،وبشيدالر | مل عرشى ، ويبعث اللهو أمنى
تلك عرسى وأنها صنع نفسى | بيدى صغتها وذيالك ابنى
هى دنيا الصبىّ لا جنة الشيـ | ـخ تفيض النعيم من كل لون

ثم يخاطب وطنه فيقول : —

قف بنا نملأ البـــلاد حماساً | ونقوض من ركنها المرجحن
هى للنـــازحين مورد جود | وهى للآهلين مبعث ضن
يستدر الأجانب الخير منها | والثراء العريض فى غير من
أبطرتهم بلادنا فتعـــالى | ابن أثينا «واستكبر» الأرمنى

ثم يختمها بهذا البيت الرائع الذى يدل على صدق الوطنية وقوة الشعور بكرامة القومية . —

يابلادى أخلصتك الخير واستعـ | ـفيت ودى إليك من كل مين

ماذا ترى فى هذا الشعر الرصين والنفثة القوية المنبعثة من فؤاد مجروح وصدر معذب بالحرقة والأنين ؟ يتألم ويرسل صوته داويا كالرعد ، مجلجلا كالرعد ، نافذاً كالسهم فى قلوب المواطنين ونفوس الشباب العاملين .

صور الحب والجمال :

ليس فى الوجود إنسان دقيق الشاعر مرهف الإحساس لايخفق قلبه للحب العذرى الطاهر ، ولا يفتتن بمنظر الجمال الساحر الجذاب ، ويعلق بالحسن فى جميع مظاهره المادية والمعنوية .

وما دامت النفس البشرية تشعر بهذه العاطفة الجامحة فأنها تجد فى الشعر خير معبر ناطق لما يلابسها من متباين الحس ومختلف الشعور ؛ وأصدق محدث ينطق بما توحى به بيئة كل شاعر ومحيطه التى نشأ فيه ، وما يؤثر عليه فى حياته من متنوع الحوادث ومتعدد المطلوب .

لقد خفق قلب الشابى بالحب حينا خاطب محبوبه بهذه الأبيات فى قصيدة عنوانها (أيتها الحالمة بين العواطف) .

أنت كالزهرة الجميلة فى الغا | ب ولـكن ما بين شوك ودود
فافهمى الناس إنما الناس خلق | مفسد فى الوجود غير رشيد
والسعيد السعيد من عاش كالليـ | ـل غريباً فى أهل هذا الوجود
ودعيهم يحيون فى ظلمة الإثـ | ـم وعيشى فى طهرك المحمود
كالملاك البرىء ، كالوردة البيـ | ـضاء ، كالموج فى الخضم البعيد
كأغانى الطيور ، كالشفق السا | حر، كالـكوكب البعيد السعيد

أودع الشابى فى الأبيات المتقدمة فنه وروحه وفكره . فهو حسن فى الصياغة والتخييل ، وبارع فى التشبيه والتمثيل ، ومن أكثر الشعراء وقوعاً على المعنى الطريف والفكرة العميقة .

فهل لنظيره التجانى شعر يشبهه فى روعة المعنى ودقة المبنى . إن التجانى وايم الحق وحيد عصره ونسيج دهره فى الإبداع فى شعر الحب والجمال . وإليك قصيدة تمثل أصدق تمثيل فنه الرائع ، وفكره البارع ، وخياله العميق ، وتعبيره الدقيق . اسمعه يقول وهو المحب الواله المفتون :

جمال وقلوب

وعبدناك يا جمـــال وصغنا | لك أنفاسنـا هياماً وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجّر | نا ينابيعها لعينيك قربى
وسمونا بكل ما فيك من ضعـ | ـف جميل حتى استفاض وأربى
وحبـــوناك ما يزيدك يا لفـ | ـظ وضوحاً ، وأنت تفتأ صعبا

إلى أن قال :

من تُرى وزع الفاتن يا حسـ | ـنُ ومن ذا أوحى لنا أن نحبا
من ترى علّم القلوب هوى الحسـ | ـن وقال اعبدى من السحر ربا
من ترى ألهم الجمال وقد أعطـ | ـاه من جبرة الحوادث عضبا
أن يبث الهوى مفاتن فى جفـ | ـن بليغ وأن يجـود ويأبى
من ترى وثق العرى بين مسحو | رين اسما هما جمـالا وقلبا
إنه صانع القـــلوب التى تنـ | ـصب فى قالب المحاسن صبا

تصوير الحالات النفسية :

إذا عرفنا أن فى مكنة الشاعر العبقرى أن يُنطق الشخوص عن نفثات صدورهم ، وصيحات قلوبهم ، وحسرات نفوسهم

في تعبير قوي ونغم سحري ، ومعنى علوي ، ينتقل به التأثير إلى نفوس السامعين فتتحرك عواطف القارئين بوحي الصورة المحسَّة في الوصف الشعري ؛ فإن في استطاعته من غير ما مشقة أو نصب أن يصور خلجات نفسه ، ونبضات قلبه ، وإحساس روحه ، صوراً شعرية ، هي فيض العاطفة المنفعلة ، ووحي الوجدان الصادق الذي عرف حقائق الوجود في نفسه معرفة الواقع الملموس ، لا المتخيل المحسوس .

للشابي قصائد كثيرة يصور فيها مطالب حسه ، وشجون نفسه ، تصويراً عذباً صادقا تحس فيه حرارة الإيمان ، وصدق العواطف الباكية الناحبة . قال أبياتاً في قصيدته (في ظل وادي الموت) :

نحن نمشي وحولنا هاته الأكـ ... وان تمشي ؛ لكن لأية غايه ؟
نحن نشدو مع العصافير للشمـ ... س ، وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو آية الكون للمو ... ت ، ولكن ماذا ختام الروايه ؟

إلى أن قال :

قد رتعنا مع الحياة طويلا ... وشدونا مع الشباب سنينا
وعدونا مع الليالي حفاة ... في شعاب الزمان حتى وعينا
وأكلنا التراب حتى مللنا ... وشربنا الدموع حتى روينا

وفي قصيدة أخرى عنوانها (الأبد الصغير) يقول :

يا قلب إنك كون مدهش عجب ... إن تسأل الناس عن آفاته وجموا
كأنك الأبد المجهول قد عجزت ... عنك النهى واكفهرت حولك الظلم
يا قلب كم من مسرات وأخيلة ... ولذة يتجلى ظلها الألم
غنت بفجرك صوتاً حالماً مرحا ... نشوان ثم توارت وانقضى النغم

ثم يعدد ما انتابه من آلام وأحزان عقبت ما كان فيه من مسرات ولذائذ فيقول :

كم قد رأى ليلك الأشباح هائمة ... مذعورة تتهاوى حولها الرجم
ورفرف الألم الداجي بأجنحة ... من اللهيب وأنَّ الحزن والندم
تمضي الحياة بماضيها وحاضرها ... وتذهب الشمس والشطآن والقمم
وأنت أنت الخضم الرحب لا فرح ... يبقى على سطحك الطاغي ولا ألم

ثم يصور أحلامه التي نسجها فتلاشت ، وأكاليل فخاره وزينته التي أفنتها العواصف ، وأمانيه النضرة بمباهج الفردوس ومتع الجنان ، حيث اختفت وزالت . كل ذلك يعطيك فكرة عن نفسه التي برمت بالحياة لزوال ما فيها من نعيم أو جحيم ، لأنها تستقر بعد الحياة الفانية في دنيا الخلود شابة نضرة مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم . كأنها لم تعرف السار البهيج والقاتم الحزين من صور الحدثان وظروف الزمان . إنه يقول هذا المعنى في هاته الأبيات :

يا قلب كم ذا تمليت الحياة وكم ... راقصتها فرحا ما مسك السأم
وكم توشحت من ليل ومن شفق ... ومن صباح توشى ذيله السدم
وكم نسجت من الأحلام أردية ... قد مزقتها الليالي وهي تبتسم
وكم ضفرت أكاليلا موردة ... طارت بها زعزع تدوى وتحتدم
وكم رسمت رسوما لا تشابهها ... هذى العوالم والأحلام والنظم
كأنها ظلل الفردوس حافلة ... بالحور ثم تلاشت واختفى الحلم
تبلو الحياة فتبليها وتخلعها ... وتستجد حياة ما لها قدم
وأنت أنت شباب خالد نضر ... مثل الطبيعة لا شيب ولا هرم

إن التجاني لا يقل عن الشابي مقدرة في صوغ الانفعالات الوجدانية والحالات النفسية في صورة تخيل لقارئها أنه يناجي نفسه ويحاور ضميره ، لا أنه يقرأ قطعة ممتازة لشاعر ممتاز . تقدم لك منها هذه القصيدة العصماء في روحها ومعناها ، وفيما تحمل من أسى وشجى ومن دموع وآلام . هي قطعة تفجرت من نفس ممزقة ونفثة من صدر مصدور عاني تنكر الصديق ، وجفاء الناس ، وقسوة المرض ، وتكالب المصاعب والمصائب . يقول هذا الشاعر وهو على فراش الموت مخاطبا صديقه « أنيس » :

أرأيت الصديق يأكله الدا ... ء ويشوى عظامه المخراق
ماردٌ هده السقام ولكن ... صبره الجم للضنى دفاق
جف من عوده الندى فتعرى ... وتفتت من حوله الأوراق
وذوى قلبه النضير وقد كا ... ن له في زمانه تخفاق
وأنا اليوم لا حراك كأن قد شد ... في مكمن القوى أوثاق
بت أستنشق الهواء اقتسارا ... نفس ضيق وصدر نطاق
وحنايا معروفة وعيون ... غائرات ورجفة ومحاق
لى رجاء في رحمة الله لما ... وسعت في الحياة ما لا يطاق

أبو القاسم محمد بدري
مدرس بالمدرسة الثانوية بأم درمان (السودان)

ظَرْف الفقهـــــاء

[مهداة إلى الأستاذ على الطنطاوى]

للأســـتاذ على العماري

تحدث الأستاذ على الطنطاوى فى مقالين سابقين نشرهما فى مجلة الرسالة عن غزل الفقهاء : وقد أوحى بهما إليه جدل كان بينه وبين أحد المتزمتين الذين ينكرون على العالم أن يطرب ويهتز، ويرون أن من واجب العالم أن يترفع عن الشعر وعبثه . وقد أفاض الأستاذ الطنطاوى — كعادته — فذكر كثيراً من شعر الفقهاء فى الغزل ، ونشر صحائف طيبة من حيوات هؤلاء العلماء الفضلاء .

وقد رأيت أن لهؤلاء ناحية جديرة بأن يتأملها مثل هـذا الرجل الذى يحرم طيبات الفكر على العلماء !

تلك هى ناحية « الظرف » . فقد كان كثير من الفقهاء على جلالة أقدارهم ، وسمو منازلهم، يهتزون للشعر ، وتأخذهم الأريحية عند سماعه ؛ وربما صدرت عنهم أشعار فكهة رائعة .

ولعل خير ما نهديه لمثل هذا الرجل هذه القصة :

كان القاسم بن سلام رحمه الله إمام أهل عصره فى كل فن من العلم ، وكانوا يعدونه أعلم من ابن حنبل والشافعى مع دين وورع ، وقد جاءه رجل فسأله عن الرباب فقال هو الذى يتدلى دون السحاب ، وأنشد لعبد الرحمن بن حسان :

كأن الرباب دوين السحاب ... نعـــام تعلق بالأرجـــل

فقال الرجل لم أرد هذا فقال : الرباب اسم امرأة وأنشد :

إن الذى قسم الملاحة بيننا ... وكسا وجوه الغانيات جمالا

وهب الملاحة للرباب وزادها ... فى الوجه من بعد الملاحة خالا

فقال لم أرد هذا أيضاً ، فقال لعلك أردت قول الشاعر :

رباية ربة البيت ... تصب الخل فى الزيت

فقال هذا أردت . قال له القاسم من أين أنت ؟ قال من البصرة قال كم أعطيت للملاح ؟ قال : أربعة دراهم . قال : اذهب استرجع منه ما أعطيته وقل له : لم تحمل شيئاً فعلام تأخذ الأجرة[1] ؟ !

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٢٥٩ طبعه دار المأمون

فهذا كلام له وزنه فى تقدير الرجال ؛ وهو جدير بأن نوجهه إلى كل رجل ينكر قيمة الشعر ، وينتقص محاسنه .

وإن المتصفح لتراجم العلماء ليرى فيها نفحات أدبية ، ولطائف شعرية ، تروع وتعجب ، ولا يمكن لمثلى فى هذا المقام أن يستقصى ، وإنما هى نماذج أنشرها وفيها غناء .

كان أبو حازم الأعرج من فضلاء التابعين ، وله فى الزهد والورع أخبار وأحاديث ، وقد خرج يوما يرى الجمار فإذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها وألهتهم بجمالها ، فقال لها : يا هذه ، إنك بمشعر حرام وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم فاتقى الله واستترى ، فإن الله عز وجل يقول فى كتابه العزيز (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) فقالت : إنى من اللائى قيل فيهن :

أماطت كساء الخز عن حر وجهها ... وألقت على المتنين برداً مهلهلا

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة ... ولكن ليقتلن البرىء المغفلا

فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة أن لا يعذبها الله بالنار . فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمنون ، فبلغ ذلك الشعبى فقال : ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم ! ! أما والله لو كان من قرى العراق لقال اغربى عليك لعنة الله[1] .

وهكذا تأخذ الأريحية هذا العابد المتزهد فيكون مثلا فى رقة العاطفة وتقدير الجمال ؛ فهو لم ينسك نسكا أعجميا ، ولا جفا طبعه وغلظ حسُّه فيغمض عينيه ويسد أذنيه دون هذه البدائع .

وربما بلغ الشعر ببعض الفقهاء إلى أكثر مما نتخيله ، ولكنها سجاحة النفس ، وقوة تأثير الشعر فيها ، قال أصحاب القاضى محمد بن عيسى الأندلسى : ركبنا لبعض الأمر فى موكب حافل من وجوه الناس إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض الأزقة سكران يتمايل ؛ فلما رأى القاضى هابه وأراد الانصراف، فخانته رجلاه واستند إلى الحائط وأطرق . فلما قرب القاضى منه رفع رأسه وأنشأ يقول :

ألا أيها القاضى الذى عم فضله ... فأضحى به فى العالمين فريدا

قرأت كتاب الله تسعين مرة ... فلم أر فيه للشراب حدودا

فإن شئت أن تجلد فدونك منكبا ... صبوراً على ريب الزمان جليدا

وإن شئت أن تعفو تكن لك منة ... تروح بها فى العالمين فريدا

وإن أنت تختار الحديد فأن لى ... لسانا على مر الزمان حديدا

(١) زهر الآداب جـ ١ ص ٢١٠ (المطبعة الرحمانية)

فلما سمع القاضي شعره وميز أدبه أعرض عنه وترك الإنكار عليه ومضى لشأنه(١)

وقد ذكر صاحب نفح الطيب طرفة أخرى لهذا القاضي الذي عم فضله قال: خرج القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى إلى حضور جنازة، وكان لرجل من إخوانه منزل يقرب من مقبرة قريش فعزم عليه في الميل إليه فنزل وأحضر له طعاما وغنت له جارية

طابت بطيب لثاتك الأقداح وزها بحمرة وجهك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه نمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها فضياء وجهك في الدجى مصباح

فكتبها القاضي طربا على ظهر يده. قال الراوي: فلقد رأيته يكبر على الجنازة والأبيات على ظهر يده(٢)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فقد حدث الأصمعي قال أنشدت محمد بن عمران قاضي المدينة وكان أعقل من رأيته:

يا أيها السائل عن منزلي نزلت في الخان على نفسي
يغدو على الخبز من خابز لا يقبل الرهن ولا ينسي
آكل من كيسي ومن كسرتي حتى لقد أوجعني ضرسي

فقال: اكتب لي هذه الأبيات، فقلت أصلحك الله هذا لا يشبه مثلك وإنما يروى مثل هذا الأحداث قال: اكتبها فالأشراف تعجبهم الملح(٣).

على أن أجمل ما في هذا الباب هذه القصيدة الفكهة الرائعة التي نظمها قاضي الجماعة بغرناطة، وكان على جانب عظيم من الفقه والدين، وقد صرفها في أغراض كثيرة من الدعابة والظرف فجاءت تحفة رائعة زاد في روعتها وزنها وقافيتها، ذكرها المقري فقال: ومن مجون الأندلسيين هذه القصيدة المنسوبة لسيدي أبي عبد الله بن الأزرق وأثبتها كاملة في كتابه النفح وهي ستة وتسعون بيتا ابتدأها القاضي فقال:

عم بانصال الزمن ولا تبال بتمن

ثم شبب فيها فأحسن إلى أن قال:

لا أم لي لا أم لي إن لم أرد شجني
وأخلعن في المجـ ـون والتصابي رسني

(١) مطمح الأنفس
(٢) جـ ٢ ص ٩٦٨
(٣) زهر الآداب جـ ١ ص ٢٠١

وأخذ ينصح صاحبه باتباع نهجه، والسير على سنته، وإلا فهو أحمق مائق.

وإن تسفه نظري ومذهـبي وديدني
فالصفع تستوجبه نعم ونتف الذقن

وجرى ملء عنانه يمزح ويمجن حتى التفت إلى الماضي فبكى عليه وتحسر على أيامه ولياليه.

أفدي صديقا كان لي بنفسـه يسعدني
فتارة أنصحـه وتارة ينصحـني
وتارة ألعنـه وتارة يلعـنني
وربما أصفعـه وربما يصـفعني
دهر تولى وانقضى عني كطيف الوسن
يا ليت هـذا كله فيما مضى لم يكن

وقد يجد ويقوى ويأتي بالمعنى الفحل، واللفظ المتين.

كأنني ولست أد ري الآن ما كأنني
والله ما التشبيه عنـ ـد شاعر بهين

ثم أخذ في تعداد الأطعمة التي يشتهاها بشعر سافر لا مواربة فيه ولا التواء.

هـل للثريد عودة إلى قد شـوقني
تغوص فيـه أنملي غوص الأكول المحسن

وبعد أن أفاض في هذا إفاضة مليحة أخذ يخاطب صاحبه:

إيه خليـلي هذه مطاعـم لـكنني
أعجب من ريقك إذ يسـيل فوق الذقن
هل نلت منها شبعا فذكرها أشـبعني
وإن تكن جوعان يا صاح فكل بالإذن
فليس عنـد شاعر غـير كلام الألسن
يصور الأشياء وهي أبداً لم تكن
فقـوله بريك ما ليس يرى بالممكن(١)

وأظن أننا بعد هذه النماذج في حل بأن نسوق إلى هؤلاء الذين يحرمون علينا طيبات القرائح، وثمرات الأدب، هذا الذي روي عن شيخ من شيوخ قريش وسادتها، فقد سئل أبو السائب المخزومي: أترى أحدا لا يشتهي النسيب؟ فقال: أما من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا.

علي العماري
المدرس بالأزهر

(١) نفح الطيب جـ ٢ صـ ٨٣٤

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٧٦٩ — يارب ... !

نظر ابن السباية إلى مبارك التركي على دابة فرفع رأسه إلى السماء وقال : يارب ، هذا حمار ، وله دابة ، وأنا إنسان ، وليس لي حمار ...

٧٧٠ — لما رضينا ولغضبنا

في الأغاني : أنشد المهدي قول المؤمل :

قتلت شاعر هذا الحي من مضر   والله يعلم ما ترضى بذا مضر

فضحك وقال : لو علمنا أنها فعلت لما رضينا ولغضبنا وأنكرنا .

٧٧١ — وفي جهنم ماء

قال محمد بن مسروق البغدادي : خرجت ليلة في أيام جهالتي وأنا نشوان وكنت أغني بهذا البيت :

بطور سيناء كرم ما مررت به   إلا تعجبت ممن يشرب الماء

فسمعت قائلا يقول :

وفي جهنم ماء ما تجرعه   خلق فأبقى له في الجوف أمعاء

فكان ذلك سبب توبتي واشتغالي بالعلم والعبادة .

٧٧٢ — وإن تركته أخذ في الترهات

ذكر أعرابي رجلا بسوء الأدب فقال : إن حدثته سبقك إلى ذلك الحديث ، وإن تركته أخذ في الترهات .

٧٧٣ — قد صحح مذهبكم

قال محمد بن هلال الصابي : خرج قوم من الديلم إلى اقطاعهم فظفروا باللص المعروف بالعراق فحملوه إلى الوزير المهلبي فتقدم باحضار أحمد بن محمد القزويني الكاتب وكان ينظر في شرطة بغداد فقال له المهلبي : هذا اللص العيار العراقي الذي عجزتم عن أخذه فخذه واكتب خطك بتسلمه .

فقال السمع والطاعة إلى ما يأمر به الوزير ، ولكنك تقول ثلاثة وهذا واحد فكيف أكتب خطي بتسلم ثلاثة .

فقال : يا هذا . هذا العدد صفة لهذا الواحد ، فكتب يقول :

أحمد بن محمد القزويني الكاتب : تسلمت من حضرة الوزير ، اللص العيار العراقي ثلاثة وهم واحد رجل ، وكتب بخطه في التاريخ .

فضحك الوزير وقال لنصراني هناك : قد صحح القزويني مذهبكم في تسلم هذا اللص .

٧٧٤ — أسأل الله أن يديم لنا بقاءك

روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار :

أمر عبد الله بن الزبير لأبي الجهم العدوي بألف درهم فدعا له وشكر فقال : بلغني أن معاوية أمر لك بمئة ألف درهم فسخطتها وقد شكرتني .

فقال أبو الجهم : بأبي أنت ! أسأل الله أن يديم لنا بقاءك فاني أخاف إن فقدناك أن يمسخ الناس قردة وخنازير ، كان ذلك من معاوية قليلا وهذا منك كثير ، فأطرق عبد الله ولم ينطق .

٧٧٥ — طلبناه في النهار فما وجدناه

دخل اللصوص على أبي بكر الدباني يطلبون شيئا فرآهم يدورون في البيت .

فقال : يا فتيان ، هذا الذي تطلبونه في الليل قد طلبناه في النهار فما وجدناه .

٧٧٦ — قد سحرتني

الخصائص لابن جني : الأخبار في التلطف بعذوبة الألفاظ إلى قضاء الحوائج أكثر من يؤتى عليها ، ألا ترى إلى قول بعضهم وقد سأل آخر حاجة .

فقال المسئول : إن علي يمينا ألا أفعل هذا .

فقال له السائل : إن كنت (أيدك الله) لم تحلف يمينا قط على أمر فرأيت غيره خيرا منه فكفرت عنها له وأمضيته ، فما

أحب أن أحنثك(١) ، وإن كان ذلك قد كان منك فلا تجعلني أدون الرجلين عندك .

فقال له : قد سحرتني . وقضى حاجته .

٧٧٧ — جيش بأبى

ضرب الحجاج البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان فكانت المرأة تجيء إلى ابنها وقد جرد فتضمه إليها وتقول : (بأبي) جزعا عليه ، فسمى ذلك الجيش « جيش بأبى » وأحضر ابن عبدل فجرد فوجد أعرج فأعفى فقال في ذلك :

لعمرى لقد جردتني فوجدتني كثير العيوب سيء المتجرد
فاعفيتني لما رأيت زمانتي ووفقت مني للقضاء المسدد

٧٧٨ — لما التقينا مات الكلام

أبو محجن حبيب بن عمرو الثقفي :

لما رأينا خيلا محجلة وقوم بغى في جحفل لجب
طرنا إليهم بكل سلهبة وكل صافى الأديم كالذهب
وكل عضب ، في متنه أثر ومشرفى كالملح ذى شطب
لما التقينا مات الكلام ودار (م) الموت دور الرحى على القطب
إن حملوا لم نرم مواضعنا وإن حملنا جثوا على الركب

٧٧٩ — فأين الحس

قال دهمان الغلال : مررت ببشار يوما وهو جالس على بابه وحده وليس معه خلق ، وبيده مخصرة يلعب بها ، وقدامه طبق فيه تفاح وأترج . فلما رأيته وليس عنده أحد تاقت نفسى إلى أن أسرق ما بين يديه ، فجئت قليلا قليلا وهو كاف حتى مددت يدى لأتناول منه فرفع القضيب فضرب به يدى ضربة كاد يكسرها .

فقلت : قطع الله يدك أنت الآن أعمى ؟

فقال : يا أحمق ، فأين الحس ؟

٧٨٠ — فهم لذلك مستأهلون

محاضرات الراغب :

قال ابن سيرين : مكتوب في كتاب سوء الأدب : إذا أتيت منزل قوم فلم ترض بما يأكلون ، وسألتهم ما لا يجدون ، وكلفتهم ما لا يطيقون ، وأسمعتهم ما يكرهون ، فإن لم يخرجوك فهم لذلك مستأهلون .

٧٨١ — ما بقى معه شيء

الفهرست لابن النديم : سعيد بن حميد كاتب شاعر ، مترسل ، عذب الألفاظ مقدم في صناعته ، جيد التناول للسرقة ، كثير الإغارة . قال أحمد بن أبي طاهر : لو قيل لكلام سعيد وشعره : ارجع إلى أهلك ما بقى له شيء .

الجرجاني :

لو نفضت أشعاره نفضة لا تنثرت تطلب أصحابها(١)

٧٨٢ — أنت أسد فاطلب لنفسك لبوة

قال الفضل بن محمد الضبي : حدثنا بعض أصحابنا أن جارية لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ذات ظرف وجمال مرت برجل من بني سعد — وكان شجاعا فارسا — فلما رآها قال : طوبى لمن كان له امرأة مثلك ، ثم انه أتبعها رسولا يسألها ألها زوج ؟ ويذكره لها ؟

فقالت للرسول : ما حرفته ؟

فأبلغه الرسول قولها . فقال : إرجع إليها فقل لها :

وسائلة ما حرفتي قلت حرفتي مقارعة الأبطال في كل شارق
إذا عرضت لى الخيل يوما رأيتنى أمام رعيل الخيل أحمى حقائق
وأصبر نفسى حين لاحر صابر على ألم البيض الرقاق البوارق

فأنشدها الرسول ما قال . فقالت : ارجع إليه وقل له : أنت أسد فاطلب لنفسك لبوة فلست من نسائك .

٧٨٣ — عقلنا حين ليس لنا فضول

جعفر المبدى :

وكان المال يأتينا فكنا نبذره وليس لنا عقول
فلما أن تولى المال عنا عقلنا حين ليس لنا فضول

---

(١) حنثه : جعله حانثا ، وحنث في يمينه يحنث حنثا : لم يف بموجبها (المصباح)

(١) ومما قيل في (شاعر) من دفتر
وأبو الدفاتر لا يزال يجيئنا بقصيدة قد قالها من دفتر

من الأدب الغربي :

في مقـــبرة ريفية... !

لتوماس جراى بتصرف

للاستاذ محمد رجب البيومي

الظلام الرهيب يطغى على الـكو ن كجيش يسد عرض الفضاء
حام فوق القبور يُرخى سدولاً حجبتها فما تلوح لرائى
حيث أصحابها يتيهون فى النو م سكارى كشاربى الصهباء
سئموا ظلمة القبور فخلَّت ظلمة الليـل فوقها كالوباء
لا يرون الضياء يبدو مع الشمـــس وضيئاً كطلعة الحسناء
لا ولا البدر حين يشرق فى الأ فق على الـكون ناثباً عن ذُكاء
يوقظ الديك كل غافٍ على الأر ض وهْمْ مثل الصخرة الصمّاء
لا حنين الناعورة الحلو يشجيهـــم وإن هزَّ مسمع الجوزاء
لا نسيمُ المراوح العذبُ غادٍ حين يحمى الهجير فى الرمضاء
لا ولا الموقد الدّفِء يسرّى عنهمو ما جناه برد الشتاء
كل هذا قد شاهدوه عيانا حين كانوا فى عالم الأحياء

هذه الأرض منذ عهد قريب لم تكن غـير بقعة جرداء
فمشى القـوم بالمحاريث والفأ س يشقُّونها بكل اعتناء
يبذرون النبات فيها جنيناً ثم يعطونه شهى الغـــذاء
فإذا الأرض بعد وقت يسير تتراءى كجنـــةٍ فيحاء
ويحها لم تصُنْ جميلاً فألقتْ أهلهـا فى قرارة الظلماء
ثم عادت فبدّدتهمْ جميعاً لم يكن عندها أقل الوفاء

ربّ شيخ قضى الحياة مع الر يف إلى أن مضى على الحدباء
كان جمَّ الذَّكاء لـكن أتى الحقـــلُ على ما فى رأسه من ذكاء
آه لو كان قد تعلَّم حـــتى يرفع العلم قدره فى السماء
صار مثـل شكسبير نبوغاً أو كلتون سيد الشعراء
فهو كالدرة الثمينة ضاعتْ فى القرار السحيق تحت الماء
أو كزهر نما بعيداً عن النا س فولّى عبيره فى الهواء
قُتل الحظ كيف حارب ذا العقــل وأرخى العنان للأغبياء

ها هو المضجع الوثير مهيًّا للذى يستريح بعـد العناء
هو كالواحة الخصيبة يسعى نحوها من يضيق بالصحراء
حلَّ فيه جماعة ما استفادوا من لذيذ الحياة غـير العناء
لا الوسام الأنيق يسطع فى الصـــدر جميـلا كبسمة العذراء
لا النياشين ضاحكاتٌ عليهم كأزاهير روضـــةٍ غنّاء
رُبَّ ذى رُتبةٍ أحالته وحشاً مجرماً لا يمل سفك الدماء
كان من قبلها ملاكا وديماً فغـدا مثل حيَّـة رقطاء

خبّرونى ماذا يلوح لعينى فوق تلك المقابر الخرساء
كل قبر عليه لوحٌ عريض مُثقلٌ بالنعوت والأسماء
ينظر الزائر المحبّ إليـــه ثم يبكى على الحبيب النّائى
كم ثكول أتتْ تزور ضريحاً قد نوى فيــه صفوة الأبناء
وصديق يصيح أين صديقى كيف أرنو لوجهه الوضّاء
يقرأ اللوحَ ما على اللوح إلا جمراتٌ تشب فى الأحشاء

ليت شعرى ماذا سيكتب عنى حين أغفو فى باطن الغبراء
سيقولون عاشق ضيَّع العمر وراء الطبيعـــة الحسناء
يجتلى حسنها الأنيق طروباً حيث تبدو فى بهجةٍ ورواء
فى ابتسام الصباح إذ يتجلى فى احمرار الأصيل عند المساء
فى شطوط البحار والماء ساج فى المروج الفسيحة الخضراء
يتخذ الكون مسرحاً يتسلّى فيـه عمَّا به من الأدواء
لا ينال القوت الضرورىّ إلا بشقاء ما بعدَهُ من شقاء
قطع العمر فى الحياة فقيراً مثل باقى أفرادها الفقراء
يبذل الدمع للمساكين حتى لم تمدْ فى عينيه قطرة ماء
لم تنله الحياة غير صديق كان فى ليلها كبدر السماء
كان ريحانة الفؤاد ولـكن ويْلتا ! قد مضى لدار البقاء

محمد رجب البيومي

رباعيـــات عثمان ... !

للأستاذ عثمان حلمى

آذنتْ آيةُ الدجى بالزوال   وسرى كالسنى نسيم الشمال
حاملاً للحياة نفحاً من العطـ   ـر وروحاً جديدة الآمال
مُعلناً فى براءة آية الفجـ   ـر كما فى براءة الأطفال
وكأن النجوم حيرى وقد أد   ركن فى صمتهن قربَ المآل

وبدا الصبح ساكناً فى ظلال   من جلال عجيبة الأشكال
رافعاً رأسه المضيئة فى الكو   ن على كل مستقرٍ وعال
ساحباً ذيله على النجم حتى   لم يدعْ منه غير مثل الذبال
فتوارى من السموات نجمٌ   سار فى إثره من النجم تال

وتجلت على الربى والمروج   لمحات من الصفاء البهيج
فعلى جانب السماء من الشر   ق شبيهٌ بالنار ذات الأجيج
ذات لون مُورّد أرجـــوا   نىٍّ وروحٍ فى الشمْ ذات أريج
هتفتْ بالرجاء همساً بذات الـ   صدْع لما هفت بذات البروج

ورنا حاجب من الشمس ساج   صامتٍ فى الهيبة الوهّاج
فتراءى لكل عين على الأفـ   ـق منيراً كشعلة من سراج
واستحالت لآلئ الطلّ فى الدو   ح إلى محض سائل رجراج
وسرتْ موجة من النور يتلو   ها سواها من هذه الأمواج

صورة إثر صـــورة تتوالى   شهد الطير حسنها أشكالا
فتغنى ما شاء للصبح إكبا   راً وغنّى لنـــوره إجلالا
وأفاق الإنسان من موته الأصـــغر واستقبل الحياة نضالا
فمضى فى طلابه الرزق يسعى   وتمادى ضجيجه وتعـــالى

وبدا فى الحياة يوم جديدُ   صارمٌ وجهه الجديد المجيدُ
كلما عجّ فى الوجود على الصمـــت على الصمت عجّ فيه الوجودُ
وتجلى النهارُ واستعلت الشمس   وكدَّ الشقىُّ والمجـــدودُ
ومن الغيب خلفه وهو يجرى   كيفما كانت الحياةُ شهودُ

ومضى فى الزمان هذا النهار   وتوالت بما جنى الأخبارُ
وطوى الغيب صفحة فى سجل   سطرته بكفّها الأقــدار
ولكم أضمرت سواها من الما   ضى ومرّت فما لها آثار

هكذا فات ذلك اليومُ فى العمـــر وفاتتْ بمثله الأعمارُ

ماترى الشمس بعد طول اللغوب   كيف مالت هزيلة للمغيب
وهى تهوى بين السحاب إلى البحـ   ـر وتخطو إليه خطو الهيوب
وكأنى بها على الدهر ملّتْ   سمْتَيها بين جيئة وذهوب
صورة لو فطنتَ تأخذ بالألـ   ـباب من حسنها العجيب المهيب

صـورة تلك تمقتها السماء   كم تغنى بحسنها الشعراء
فلقد تبعث السرور وقد يهـ   ـتاج منها لدى الشجىِّ البكاء
والتقى البحر بالسماء مع الشمـــس ولكن هيهات هذا اللقاء
خدعة فى العيون أم ضلت الأبـ   ـصار أم قد أصابها إعياء

هاهى الشمس مسَّت الأفق مساً   وارتضى قرصُها من البحر رمسا
فهوى فيه صامتاً وانتهى الأمـــر فما تستبين فى الكون جرسا
غير همس فى الأذن لم تدر معنا   ه وخافٍ فى النفس يهمس همسا
ربما مال بالنفوس إلى اليأ   س وإن لم تصب من العمر يأسا

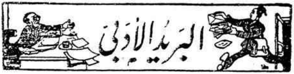
هاهى السحب بين بيض وحمر   رابضات وبين دُكن وصُفر
لوَّنتها كما تشاء يد الغيـ   ـب ولم تستعن بدهن وحبر
فتوالت شتى المناظر حتى   لم تقع مقلة على مستقر
يا لها من يد أجادت لعمرى   ما أجادته بين طى ونشر

فوداعاً أيا رفاق شبابى   ووداعى الأخير يا أحبابى
ربما دارت الليالى علينا   فالتقينا من بعد طول اغتراب
إنما نلتقى شخوصاً سوى أشـ   ـخاصنا من بعد هذا الغياب
بدلتنا يد الزمان سوانا   إن قضت بعد غيبة بالإياب

لم هذا التغيير والتبديل   وإلام التحوير والتحويل
لجسوم على المدى وعقول   ونفوس على الليالى تحول
كل حب إلى زوال وإن جد   لعمرى وكل حسن يزول
ما يجا الميت الجماد ولا الحـ   ـى ولا سالم ولا معلول

لم لا نلتقى لغـــير فراق   ربما ساقنا لغـــير تلاق
ما لنا من يد على البعد والقر   ب وكل الأمور محض اتفاق
لم هذا والعمر يوم إذا ما   طال بين الغروب والإشراق
طال منى على الحياة سؤالى   لم لا نلتقى لغـــير فراق

عثمان حلمى



معهد الفقه الإسلامي للجامعة العربية :

قدم الأستاذ عبد الرزاق السنهوري باشا رئيس اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية مذكرة للأمانة العامة للجامعة يقترح فيها إنشاء معهد للفقه الإسلامي تنفيذاً للرغبة التي أبداها مؤتمر الجمعية المصرية للقانون الدولي .

وقد صدرت المذكرة بمقدمة عن الغاية من إنشاء المعهد أشارت إلى مكانة الفقه الإسلامي بين النظم القانونية العالمية ، وأنه لا يقل في قوة السبك ، وحسن الصياغة ، وسمو المنطق ، ودقة التحليل عن الفقه الروماني أو الانجليزي ، وهو فوق ذلك التراث القانوني للشرق العربي . ثم أشارت إلى حركة الاجتهاد وإلى إقفال بابه والحكمة منه ، وقالت إنه كان على الفقه بعد ذلك أن يستكمل حظه من الاستقرار بعد أن استوفى نصيبه من التطور ولكن هذه الحال لم تبق إلا إلى حين إذ لم يلبث الزمن أن دار دورته وتابع السير إلى الأمام . هذا والفقه الإسلامي واقف والعالم يمشي ، ثم انفرجت مسافة الخلف بين الفقه والحاجات المتجددة حتى أصبح من العسير على الأمم العربية في العصر الحاضر أن تستبقي الفقه مادة تستقي منها قوانينها الحديثة وقد أخذت هذه الأمم تهجر الفقه الاسلامي فعلا ولجأت إلى القوانين الغربية المتطورة التي تماشي مدنية العصر .

ومن هنا نشأت أزمة الفقه الإسلامي منذ أول القرن التاسع عشر وهي أزمة تحتاج إلى علاج طويل حتى يعود إلى الفقه الإسلامي مجده الأول بشرط أن تبدأ من الآن في إيجاد بيئة تعاد فيها دراسة هذا الفقه الجليل وتتحقق هذه البيئة بإنشاء معهد للفقه الاسلامي .

أما الوسائل التي يتذرع بها المعهد لتحقيق الغرض منه فيقترح أن تكون بإنشاء المعاهد الآتية :

أولا — معهد تدريس يمنح الشهادات والدبلومات الجامعة يلتحق به الحاصلون على ليسانس الحقوق من إحدى الجامعات العربية .

ثانياً — معهد لتكوين الباحثين في الفقه الاسلامي على الأسلوب الاسلامي العلمي الحديث ويكون بتخصيص جوائز دراسية للنابغين من الطلبة المتخرجين في المعهد الأول .

ثالثاً — معهد للبحوث الفقهية العالية يضع فيه الأساتذة مؤلفات حديثة ويرتبون الكتب القديمة ترتيباً علمياً .

رابعاً — معهد لنشر المخطوطات من كتب الفقه التي لم تنشر لليوم .

خامساً — معهد يضم مكتبة جامعة في الفقه الإسلامي تشتمل على المؤلفات الفقهية القديمة والحديثة .

وينبغي أن يلحق هذا المعهد كله بإحدى جامعات الدول العربية حتى يتسنى له منح الشهادات والدبلومات ، وأفضل هذه الجامعات في الوقت الحاضر هي جامعة فؤاد الأول لاسيما وأن كلية الحقوق بها قد نظمت دراسة في الفقه الإسلامي .

ويقترح أيضاً أن يكون للمعهد عندما يستكمل نموه ستة كراسي : اثنان للفقه الإسلامي واثنان للقانون المقارن وكرسي لتاريخ الفقه الإسلامي وكرسي لأصول الفقه .

هي للجاحظ وليست للعسكري :

نقل حجة العرب النشاشيبي في (نقله) البليغة الحكيمة بالعدد ٦٧٥ من مجلة « الرسالة » الغراء عن كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري هذه العبارة :

« قد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والاعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي (والحذف) وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً[1] »

وهذا القول ليس من كلام العسكري وإنما هو من إنشاء الجاحظ وأسلوبه ، وقد أورده في الجزء الأول من كتاب الحيوان ص ٤٦ (طبعة الساسي) ثم نقله العسكري من غير أن يعزوه إلى صاحبه كعادته في كثير مما نقل في كتابه .

وإنصافاً لأبي عثمان — الذي كان أول من نبه على هذا المعنى — رأينا أن نصحح ماجاء بكتاب الصناعتين ، وأن يكون ذلك على صفحات « الرسالة » الغراء .

محمود أبو رية

إصلاح :

في الكلمة (كتاب أحمد شاكر الكرمي) الرسالة ٦٧٧ ص ٦٩٧ س ٨ : « قالها منذ أربع وثلاثين سنة » صوابها : « قالها منذ إحدى وثلاثين سنة »

(١) كلام الجاحظ : أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد في الكلام



كلـــوديت ...!

للأستاذ نجاتي صدقي

كان يلذ لسعيد وهو فى باريس أن يتنزه فى كل عصر على الرصيف المحاذى لنهر السين بالقرب من نوتردام دى بارى ، وكانت رفوف الكتب القديمة المعروضة للبيع على حائط النهر الجنوبى تجذبه إليها ، وتأخذه بروائعها التاريخية والأثرية والفنية .

ووقف مرة عند أحد تلك الرفوف يقرأ عناوين كتبها ، وكان غواة الكتب القديمة ، والرسوم التاريخية يقفون إلى جانبه أيضاً ، يتصفحون المجلدات وينعمون النظر فى الصور الهزلية والفنية ، فان راق لهم شىء ابتاعوه وإلا انتقلوا إلى رفوف أخرى يبحثون وينقبون .

وبينما كان سعيد مستغرقاً فيما هو به ، إذا بمجموعة من الكتب تنهار إلى جانبه وتتبعثر ، ويعقبها صوت نسوى يتمتم متأسفاً ، فالتفت إلى يسراه ، فوجد فتاة فرنسية ترفع الكتب عن الأرض وتعيدها إلى مكانها ، وكان الواجب يدعوه إلى مساعدتها ، فراح يجمع ما بعثرته ، وكانت هى تشكره مبتسمة ، وكان هو يجيبها مبتسما بان لا شىء يستحق الذكر ...

وبعد أن أعادا الكتب إلى مكانها ، لمح الشاب أن الفتاة أبقت بيدها كتابا قرأ على غلافه « العقد الاجتماعى » لجان جاك روسو .

فقال لها بلهجة لا تخلو من الاستغراب : عفواً أيتها الآنسة أهذا هو الكتاب الذى كنت عنه تبحثين ؟

قالت : أجل ...

قال : أيهمك مثل هذه المواضيع ؟

قالت : تهمنى جداً ...

قال : ولكن الموضوع شائك ... ويخيل إلىّ أن الفتيات لا جلد لهن على مطالعة الكتب المرهقة للدماغ .

قالت : هذا خطأ شائع ... نحن فى فرنسا نطالع كل شىء ، نطالع كل ما يطالعه الرجل ... ونفعل كل ما يفعله ، ولا ينقصنا إلا حرية الإنتخابات .

وإذ رأى سعيد أن الفتاة مثالية جريئة متوثبة انتظر حتى ابتاعت الكتاب وهمت بالذهاب فاقترب منها ، وقال بصوت خافت :

— ألدى الآنسة أى مانع للتعرف إلى شاب شرقى ؟

فأطرقت الفتاة قليلا ، ثم رفعت رأسها وحملقت فى وجهه وقالت:

— إذا كان هذا التعارف يرضيك ، فليكن ، إسمى كلوديت رانجون تلميذة فى المدرسة الطبية ...

قال : ولى الشرف بأن أقدم لك نفسى : أنا سعيد اللبّان ... من الشرق ... وأقطن باريس مؤقتاً ...

وسارا معا بمحاذاة نهر السين إلى أن عبرا الجسر المؤدى إلى اللوفر ومنه إلى حديقة التويللرى ، فتجولا فى دروبها بين الزهور والرياحين وكانا يتنقلان فى حديثهما من موضوع إلى آخر ، إلى أن قالت الفتاة فى معرض كلامها عن جان جاك روسو ونظرياته التى أودعها فى « العقد الاجتماعى » .

— أجل ... يجب أن نعود إلى أمنا الطبيعة ... ألا تكفى خيرات الأرض لإعاشة الناس ؟ ... وما الأفضل للمرء : أأن يعيش فى جو خانق من دخان المصانع والمعامل ، أم أن ينشىء بيته فى الغابات الواسعة ، ويستنشق الهواء الطلق ، ويشرب المياه العذبة ، وينام وينهض على تغريد الطيور ؟

قال : أتعنين بذلك إقامة مخيمات ؟

قالت : كلا إننى أعنى إعادة تنظيم معيشة الناس طبقاً لحياتهم الفطرية الأولى ، ولكن على مستوى عال من العلم والثقافة ...

ثم أخذت تقنعه بأن الإنسان جبل من طينة طيبة ، غير أنه فى مراحل تطوره خرج عن اتجاهه الطبيعى وأساء التصرف بما منحته إياه الطبيعة من خيرات وغدا مخلوقاً شاذاً أنانياً جائراً ، وخلصت إلى القول بأن البشرية لن تجد الراحة والطمأنينة إلا بوضع عقد اجتماعى يكفل للناس حقوقهم .

أخذ المساء يسدل ستاره على باريس وبدأت العاصمة الفرنسية تبدو رويداً رويداً بلباس السهرة المحلى بالألوان الزاهية ، وكانت الأرض تلفظ جماعات من الناس عائدين إلى بيوتهم ، وتبتلع غيرهم ممن يسكنون الضواحى ... ولما بلغا فى مسيرهما محطة مترو (الأوبرا) قالت له كلوديت : إلى هنا ينتهى بنا المطاف ... استودعك الله ...

قال : عفواً ... لقد شوقتني بحديثك عن حياة الغابات ،

أفلا تعرفين غابة بالقرب من باريس تكون بمثابة نموذج صغير للمكان الطبيعي الذي تودين المعيشة فيه ؟ ...

فقهقهت كلوديت وقالت :

— بلى ... أعرف غابة (كلامار) ...

قال : هل لنا أن نتنزه فيها يوم الأحد ؟

فهبطت الفتاة درج المترو وقالت (انتظرني يوم الأحد الساعة العاشرة صباحا عند مدخل محطة (مونبارناس) ومنها سنذهب إلى (كلامار) فالى اللقاء ! ...

***

أي شعور غريب يستولي على المرء إذا ما ولج الغابة ؟ ... طرق سعيد وكلوديت غابة (كلامار) فكانت الأشجار الباسقة تحجب عنهما نور الشمس ، ما خلا خيوط لها ألوان قوس قزح تسربت من خلال الأغصان ، وأنارت الدغال التي سقطت عليهما وساعدتهما على اجتياز دروب الغابة الموجة وشعاب مسالكها الضيقة ... وكانت الغربان تنعق هنا وهناك وهدير المياه يصل إلى مسامعهما ، فيحمل لها الهواء في طياته رذاذها المنعش ، وكان حفيف الشجر يبدو لهما كما لو أن رتلا من السيدات يسرن بالقرب منهما وهن يجررن أذيال أثوابهن ... ما هذا الجو الساحر الذي يكتنف سعيداً ؟ وما هو هذا الدغل الرائع الذي سلبه عقله ؟

وبعد أن استراحا قليلا على الحشائش الأبدية الاخضرار ، بادرت كلوديت سعيداً قائلة : (كيف تشعر الآن ؟ ألا تفضل المقام في هذا المكان على أي نزل في الحي الثامن من أحياء باريس ؟

لم يحر الفتى جواباً وإنما استغرق في تأملاته ، وكان يحس بوجل لا يدري سببه ، فالأشجار المحيطة به ، واحتجاب النور عنه إلا ثلاثة خيوط ملونة اخترقت الدغل الذي هو فيه ، ونعيق الغربان فوق رأسه ، ورطوبة المكان الذي يحف به ، وحفيف الأغصان الذي يهدهد مسمعيه ، كان لهذه العوامل كلها أثرها في نفسه ، فتذكر الجنة ، وتذكر آدم وحواء ، فالتفت إلى كلوديت فوجدها قد أسندت رأسها إلى الشجرة وعلى ثغرها ابتسامة الرضى ..

انقضى النهار ، وحل المساء ، فأقفرت الغابة من المتنزهين وركنت الطيور إلى أوكارها ، وأرخى الليل سدوله ، فلم ير الفتى والفتاة من النور إلا ما كان يشع من أعينهما ، ولم يسمعا من الأصوات إلا ما كانا يصدرانه من نفثات ، ولم يجدا شيئاً يدرءان به عن نفسيهما برد الليل إلا ما كان يجري في عروقهما من دم متدفق مشبع بحرارة الشباب ...

ثم عادا إلى باريس ، وقد تأبط سعيد ذراع كلوديت ، وأسندت هي رأسها إلى رأسه ، وكانت تحدثه عن الحب الخالد ، وارتباط القلوب الأزلي ، وكان هو يؤكد لها ذلك أيضاً ، ويشكر المصادفات التي أدت إلى تعارفهما والجمع بينهما .

ولما أخذا مكانيهما في القطار ، قال لها الفتى على حين غرة : لقد نسيت منهجك في الغابة ...

قالت : وأي منهج تعني ؟

قال : كتاب (العقد الاجتماعي) .

قالت : شيء تافه ... وإني لأرى يا حبيبي الآن أن أقر لك بحقيقة الأمر ... إنني لست من أتباع روسو ولا غيره ... رأيتك تقف عند بائع الكتب القديمة فرأيت في ملامح وجهك بأنك من أهل الشرق الذين تكتنف نفوسهم الغموض والأسرار ... فهذا الشعر الأسود وهاتان العينان البراقتان ، وهذان الحاجبان المقطبان ، وهذا الأنف القوقاسي ، وهذه الذقن الموجة ، وهاتان الشفتان المنفرجتان ... وهاتان الوجنتان البارزتان ... كل هذا ما حدا بي لكي أتحرش بك ... أما كتاب روسو فقد وقع في يدي مصادفة وكان من حسن حظي أنني عرفت عنه شيئاً ...

والآن دعنا من هذه القصة فانك لي أفضل من كل العقائد ... أنت لي إلى الأبد . انس هذا الحادث ... لقد نسيت أنا أهلي من أجل الحب ! ...

وبلغا باريس وافترقا على أن تزور كلوديت سعيداً في فندقه في مساء اليوم التالي .

لم يدر سعيد ما الذي حدث له في تلك الليلة ، فقد كان قلقاً وكانت نفسه مضطربة ، وكان في حيرة من عبث هذه الفتاة الباريسية بالمبادىء والعقائد . وما إن طلع النهار حتى رحل من الفندق إلى غيره ... وقال لصاحبه (قل لمن يسأل عني بأنني عدت إلى الشرق) ...

وبعد مرور شهر على هذا الحادث ، مر سعيد برفوف الكتب القائمة على ضفة السين بالقرب من جسر سان ميشيل فشاهد منظراً مروعاً ...

شاهد شاباً شرقياً يساعد كلوديت في جمع كتب تناثرت على الأرض ! ...

نجاتي صدقي

الكتب

سقطت فى الانتخابات ...

تأليف الأستاذ حنفى محمود جمعه

بقلم الأستاذ صديق شيبوب

لا أدرى ، أأواسى الأستاذ حنفى محمود جمعه لفشله فى الانتخابات أم أهنئه لأجله . أما المؤاساة فللجهد الذى بذله ولم يثمر ، وللمال الذى أنفقه ولم يفد ، وللآمال التى عقدها حينا فتبددت . وأما التهنئة فلأنه خرج من المعركة الانتخابية التى خاض غمارها فى أواخر سنة ١٩٤٤ بكتابه الناجح « سقطت فى الانتخابات[1] » ولولا فشله فى تلك الانتخابات لما كتبه ، فلعله كان يتحرج من كشف النقاب عن دخائلها ، وعما يجرى فيها من أمور مخالفة للقانون ، وعن الوسائل التى يتذرع بها المرشحون للفوز ، وعن الوسطاء من المرتزقة الذين ينتهزون الفرصة ليبتزوا مال المرشح . وعن الناخبين من الجهال الذين يتقاضون ثمن أصواتهم ، وعن رؤساء النقابات ومشايخ الحارات الذين يقدمون عددا معينا من الناخبين ... إلى غير ذلك مما تجده مفصلا فى الكتاب .

وقد عرف الأستاذ حنفى محمود جمعه كيف ينسق الحوادث وكيف يرويها حينا فى سذاجة مقصودة ، وكيف يحللها أحيانا فى تفكير صحيح مستقيم ، وكيف يستخلص طورا العظات البالغة من تقلباتها ، وكيف يترك طورا للقارىء أن يتولى بنفسه استخلاص تلك العظات .

والحق أن الكتاب ملىء بالدروس القيمة التى يجب أن نتدبرها لأنه يعالج ناحية هامة من حياتنا القومية ، ويقدم صورة ملموسة للانتخابات التى تجرى بين ظهرانينا ، ويصف العوامل المحلية التى تؤثر فيها . ولا شك أن العوامل التى تؤثر فى الانتخابات متعددة الوجوه متبدلة الأنواع ، تختلف باختلاف البيئات والبلدان والشعوب .

ويكفى أن نعرف أنها عند جميع الأمم تكلف مبالغ باهظة من المال لنقدر تلك العوامل الكثيرة ، فالاعلانات والحفلات والرحلات وما إليها من أنواع الدعايات التى تستدعى نفقات طائلة لا يستطيع أن يتكبدها جميع الناس أو جميع الأحزاب .

فاذا تجاوزنا هذه العوامل المادية إلى العوامل الأدبية والاجتماعية اضطرنا الحديث إلى التنويه بصفات المرشح التى تجعله محبوبا من ناخبيه مرغوبا فيه ، وإلى الإشارة إلى نفوذه فى الدائرة التى يتقدم فيها وعصبيته وجاهه ... كل هذا يحملنا على التقرير بأن الانتخابات التى تبدو حرة لأول وهلة أى أنها حرة من تداخل السلطات الحاكمة وفرض نظرياتها وأغراضها على الناخبين تظل خاضعة لمؤثرات خارجية واسعة النطاق ، ولعوامل مختلفة يصعب تحديدها ويحملنا نعنى فى بعض الأحيان بالتفاوت بين النائب وبين المهمة القومية التى يضطلع بها ...

فاذا عدنا إلى العوامل المحلية ، وجدنا أن بمصر قلما يقبل العقلاء على الانتخاب لسبب ذكره المؤلف ، ولا شك أن الوعى القومى يزداد انتباها بنسبة زيادة المتعلمين وأخذهم أنفسهم بالواجب الذى يمليه عليهم هذا الوعى بأن يتقدموا لصناديق الانتخاب ، وأن يفهموا أن ذلك فرض قومى لا مناص لمواطن حرى بهذا الاسم من تأديته .

ولا أريد أن أطيل الحديث فى هذا الباب مما يوحيه كتاب الأستاذ حنفى محمود جمعه ، ولكنى أردت أن أشير إلى العيوب التى تعترض الانتخابات لتداركها واصلاحها .

فاذا عدنا إلى ما فى الكتاب وجدنا أن الصورة التى يجلوها للحوادث كاملة فى مجموعها طيبة التناسق بين أجزائها حتى ليصح أن نقول إن كتاب « سقطت فى الانتخابات » قصة من أجمل القصص لا ينقصها قوة البناء وجودة الربط بين الأجزاء ومتانة التأليف . وهو أيضا قصة من قصص المنامرات فيها الأخذ والرد والكر والفر ، والصراحة والحيلة ..وفيها تحليل لشخصيات عديدة ممن لقيهم المؤلف ، وممن عرضوا عليه خدماتهم ، وممن

(١) طبع مطبعة السفير ، ويقع فى ١٨٤ من القطع المتوسط ، وثمنه عشرون قرشا .

قصد إليهم ، وكل هؤلاء من طبقة الشعب ، القليل منهم من انصاف المتعلمين وأغلبهم من الجهال ، وفيهم المخلص والماكر والمحتاج ، وفيهم ترى الحرب الجاهل ، وفيهم النفعى المتقلب ، وفيهم الزعيم الذى يحتاج لمالأة السلطات المحلية لتدعيم نفوذه ، وفيهم « الفتوة » الذى يبغى الشغب للشغب ، ويدع شجاعته وبأسه فى خدمة من يدفع ثمنهما .

وفى الكتاب صور شتى للتفكير الشعبى الساذج وهو أحيانا تفكير سليم . فهذا أستاذ بمدرسة أهلية يعلم تلاميذه الهتاف بحياة المرشح الذى يؤيده ، لأن من عادة الصغار أن يرددوا فى منازلهم الأناشيد والهتافات التى تعلموها بالمدرسة ، وهكذا يؤثرون على آبائهم وذوى قرابتهم . وكذلك يطوف صبية يوم الانتخابات هاتفين لأحد المرشحين ليؤثروا فى الناخبين الأميين الذاهبين إلى الانتخاب فيؤدوا صوتهم للاسم الذى تردد بآذانهم وعلق بأذهانهم فى آخر لحظة ، وتسير حوادث القصة فى لين وهوادة ، فمن تفكير فى الترشيح ، إلى دفع تأمينه ، إلى خوض المعركة الانتخابية ، وهى معركة كلامية فى الخطب التى تلقى ، وفكرية فى تدبير وسائل الدعاية ، ومادية من حيث إنفاق المال وبذله عن سعة ، وواقعية من حيث تحدى المزاحمين وإثارة الشغب عليهم وعلى أنصارهم ... إلى غير ذلك مما كان يثور الأستاذ حنفى عليه فى دخيلة نفسه ، لأنه محام ومن رجال القانون الذى يأبون إلا ما يسيغه ، ولكنه كان يضطر مرغما إلى الخروج عليه تحت تأثير أنصاره وردا لحملات منافسيه . ولعله كان يكثر من إلقاء الخطب لأنه قدير عليها بحكم مهنته ، وقد شاء أن يتحدى مزاحميه فى هذا المضمار ، فنشر فى الصحف يدعوهم إلى النزال فيه (تعالوا اخطبوا إذا قدرتم واعرضوا معى صحائفكم وما أنتم بقادرين) ولكنه ظهر بعد ذلك أن الأصفر الرنان فى تعبير القدماء ، وأوراق النقد المتداولة بلغة هذا الزمان ، أبلغ حجة وأجلى بيانا من بلاغة المنطق وفصاحة اللسان .

وفى كتاب «سقطت فى الانتخابات» غير هذا وذاك من صور سكندرية شعبية بحتة استطاع المؤلف أن يبرزها فى الإطار الخليق بها.

هذه العناصر التى عددناها تجعل من كتاب « سقطت فى الانتخابات » قصة كاملة كما قلنا ، قصة مغامرات واقعية لأنها مستمدة من صميم الحياة ، وقد عاش المؤلف حوادثها ، وعاش أمثالها غيره من زملائه الذين رشحوا أنفسهم فى الانتخابات . وفى واقع الحياة من المغامرات ما لا يصل إليه خيال القاص البارع .

كان يتراوح فى ذهنى وأنا أطالع هذا الكتاب ذكرى الجهاد الأدبى الذى حمل رايته بالاسكندرية نفر من الشباب فى أوائل عهد « جماعة نشر الثقافة » أى منذ أكثر من اثنتى عشر سنة أو يزيد . وقد تخلف البعض بعد ذلك منصرفين إلى أعمالهم واستمر البعض الآخر بحكم المهنة ، وعرف غير هذين الفريقين كيف يوفق بين عمله وبين الاشتغال بالأدب . وكان ولا يزال من هذا الفريق الأخير الأستاذ حنفى محمود جمعه ، فهو المحامى الذى تقدر مواهبه دائر القضاء وتظهر مهارته فى جلسات المحاكم وهو كذلك الأديب المتمكن الذى كانت له جولات موفقة فى الأقصوصة ، والذى كانت له مكانته بين زملائه من أعضاء تلك الجماعة . ويعرف أخصاؤه أنه ظل مخلصا للأدب ، وفيا لأصدقائه الأدباء ، ولا أدل على ذلك من كتابه : « سقطت فى الانتخابات » ، الذى تجلى فيه روح الأديب ، وإحساسه ، ودقة ملاحظته ، وصدق حكمه على الناس ، والحوادث . وإذا كان من السهل على الإنسان أن يلاحظ الحوادث فى دقة وانتباه إذا شاهدها عن كثب مشاهدة الرائى المستقل عنها فانه من أصعب الصعاب أن يحسن الملاحظة ، وأن يخلص فى الحكم على الحوادث إذا خاض غمارها بنفسه ، وكان من أشخاصها أوأبطالها كما يقولون . وفى هذه الحال قلما يستقيم صدق الاحساس ودقة الملاحظة إلا للأديب الذى تعود ذلك أى الذى تعود أن يتجرد من نفسه ، ويتخلص من شعوره وأنانيته .

وهذا ما فعله الأستاذ حنفى محمود جمعة فى كتابه « سقطت فى الانتخابات » فهو يروى ما له وما عليه ، ويتندر من نفسه ومن غيره وهو نوع من الفكاهة المستملحة التى يسميها الانجليز (هيومر) ويسير فى سرد الحوادث متنقلا فى كثير من اللباقة ، بين السذاجة والطرافة والبراعة ، وبعد: ألم أكن صادقاً فى حيرتى بين مواساة الصديق الأستاذ حنفى محمود جمعة لفشله فى الانتخابات وبين تهنئته لهذا الفشل وقد أفاد الأدب بكتابه الطريف ، ونبه إلى نقص فى الحياة الاجتماعية والقومية ..

أما مواهبه الأدبية ، وبراعته الفنية ، واطراد أسلوبه وسلاسته ، فانها مزايا ظاهرة يتبينها كل مطالع كتاب « سقطت فى الانتخابات » وهو كتاب قيم جدير بالتقدير والثناء .

صبرى شيبوب